
الدكتور مصطفى محمود
مكتبة مصر
شريف شعيب السمالوسي
رحلتي من
الشك
إلى
الإيمان

رحلتي من الشك إلى الإيمان

د. مصطفى محمود

حولها إلى حبر إلكتروني :
شريف شعيب السمالوسي

الله

كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره.. ربما كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك.. في مطالع المراهقة.. حينما بدأت أتساءل في تمرد: - تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق ولا بد لكل صنعة من صانع ولا بد لكل موجود من موجد.. صدقنا وآمنا.. فلتقولوا لي إذن من خلق الله.. أم أنه جاء بذاته.. فإذا كان قد جاء بذاته وصح في تصوركم أن يتم هذا الأمر.. فلماذا لا يصح في تصوركم أيضا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الإشكال. كنت أقول هذا فتصفر من حولي الوجوه وتنطلق الألسن تمطرني باللعنات وتتسابق إلى اللكمات عن يمين وشمال.. ويستغفر لي أصحاب القلوب التقية ويطلبون لي الهدى.. ويتبرأ مني المتزمتون ويجتمع حولي المتمردون.. فنغرق معا في جدل لا ينتهي إلا ليبدأ ولا يبدأ إلا ليسترسل. وتغيب عني تلك الأيام الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل. إن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها.. كان هو الحافز دائما.. وكان هو المشجع.. وكان هو الدافع.. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب. لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة من مهد الطفولة.

كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذي يتكرر كل يوم وغابت عني أيضا أصول المنطق وأنا أعالج المنطق ولم أدرك أني أتناقض مع نفسي إذ كيف أعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق فأجعل منه مخلوقا في الوقت الذي أسميه خالقا وهي السفسطة بعينها. ثم إن القول بسبب أول للوجود يقتضي أن يكون هذا السبب واجب الوجود في ذاته وليس معتمدا ولا محتاجا لغيره لكي يوجد. أما أن يكون السبب في حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله واحدة من حلقات السببية ولا يجعل منه سببا أول. هذه هي أبعاد القضية الفلسفية التي انتهت بأرسطو إلى القول بالسبب الأول والمحرك الأول للوجود. ولم تكن هذه الأبعاد واضحة في ذهني في ذلك الحين. ولم أكن قد عرفت بعد من هو أرسطو ولا ما هي القوانين الأولى للمنطق والجدل. واحتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر.. ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع فيه الطريق الشائكة من الله والإنسان إلى لغز الحياة إلى الغز الموت إلى ما أكتب من كلمات على درب اليقين. لم يكن الأمر سهلا.. لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذا سهلا. ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل.. ولقادتني الفطرة إلى الله.. ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء وضعف صوت الفطرة حتى صار همسا وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورا واعتدادا.. والعقل

معذور في إسرافه إذ يرى نفسه واقفا على هرم هائل من المنجزات وإذ يرى نفسه مانحا للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات وإذ يرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو والماء وما تحت الماء.. فتصور نفسه القادر على كل شيء وزج نفسه في كل شيء وأقام نفسه حاكما على ما يعلم وما لا يعلم.

***

وغرقت في مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبي أقرأ لشبلي شميل وسلامة موسى وأتعرف على فرويد ودارون. وشغفت بالكيمياء والطبيعة والبيولوجيا.. وكان لي معمل صغير في غرفتي أحضر فيه غاز ثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت وأقتل الصراصير بالكلور وأشرح فيه الضفادع. وكانت الصيحة التي غمرت العالم هي.. العلم.. العلم.. العلم.. ولا شيء غير العلم. النظرة الموضوعية هي الطريق. لنرفض الغيبيات ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات. من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات؟؟ وكان ما يصلنا من أنباء العلم الغربي باهرا يخطف أبصارنا وكنا نأخذ عن الغرب كل شيء.. الكتب والدواء والملابس والمنسوجات والقاطرات والسيارات وحتى الأطعمة المعلبة حتى قلم الرصاص والدبوس والإبرة حتى نظم التعليم قوالب التأليف الأدبي من قصة ومسرحية ورواية حتى ورق الصحف. وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا

ننسج أحلامنا ومثلنا العليا.. حول باستير وماركوني ورونتجن وأديسون.. وحول نابليون وإبراهام لنكولن.. وكرستوفر كولمبس وماجلان. كان الغرب هو التقدم.

وكان الشرق العربي هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الاستعمار. وكان طبيعيا أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق.. وهو السبيل إلى القوة والخلاص. ودخلت كلية الطب لأتلقى العلوم بلغة إنجليزية وأدرس التشريح في مراجع إنجليزية وأتكلم مع أستاذي في المشفى باللغة الإنجليزية.. ليس لأن إنجلترا كانت تحتل القناة لكن لسبب آخر مشروع وعادل.. هو أن علم الطب الحديث كان صناعة غربية تماما.. وما بدأه العرب في هذه العلوم أيام ابن سينا، كان مجرد أوليات لا تفي بحاجات العصر. وقد التقط علماء الغرب الخيط من حيث انتهى ابن سينا والباحثون العرب ثم استأنفوا الطريق بإمكانيات متطورة ومعامل ومختبرات وملايين الجنيهات المرصودة للبحث، فسبقوا الأولين من العرب والفرس والعجم واقاموا صرح علم الطب الحديث والفسيولوجيا والتشريح والباثولوجيا أصبحوا بحق مرجعا. وتعلمت ما تعلمت في كتب الطب.. النظرة العلمية.. أنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشواهد من الحس. وأن العلم يبدأ من المحسوس والمنظور والملموس وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين وما لا يقع تحت الحس فهو في النظرة العلمية غير موجود. وأن

الغيب لا حساب له في الحكم العلمي. بهذا العقل العلمي المادي البحت بدأت رحلتي في عالم العقيدة وبالرغم من هذه الأرضية المادية والانطلاق من المحسوسات الذي ينكر كل ما هو غيب فإني لم أستطع أن أنفي أو أستبعد القوة الإلهية. كان العلم يقدم صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط.. كل شيء من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام وجمال الكون كله مبني وفق هندسة وقوانين دقيقة.

وكل شيء يتحرك بحساب من الذرة المتناهية في الصغر إلى الفلك العظيم إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة التي يقول لنا الملك إن فيها أكثر من ألف مليون مجرة. كل هذا الوجود اللا متناهي من أصغر إلكترون إلى أعظم جرم سماوي كنت أراه أشبه بمعزوفة متناسقة الأنغام مضبوطة التوزيع كل حركة فيها بمقدار.. أشبه بالمدن المتكامل الذي فيه روح. كان العلم يمدني بوسيلة أتصور بها الله بطريقة مادية. وفي هذه المرحلة تصورت أن الله هو الطاقة الباطنة في الكون التي تنظمه في منظومات جميلة من أحياء وجمادات وأراض وسماوات. هو الحركة التي كشفها العلم في الذرة وفي البروتو بلازم وفي الأفلاك.. هو الحيوية الخالقة الباطنة في كل شيء.. أو بعبارة القديس توماس الفعل الخالص الذي ظل يتحول في الميكروب حتى أصبح إنسانا ومازال يتحول. وسيظل يتحول إلى ما لانهاية. والوجود كان في تصوي لا محدودا لا نهائيا. إذ لا يمكن أن يحد الوجود

إلا العدم.. والعدم معدوم.. ومن هنا يلزم منطقيا أن يكون الوجود غير محدود ولا نهائي. ولا يصح أن نسأل.. من الذي خلق الكون. إذ أن السؤال يستتبع أن الكون كان معدوما في البداية ثم وجد.. وكيف يكون لمعدوم كيان. إن العدم معدوم في الزمان والمكان وساقط في حساب الكلام ولا يصح القول بأنه كان. وبهذا جعلت من الوجود حدثا قديما أبديا أزليا ممتدا في الزمان لا حدود له ولا نهاية. وأصبح الله في هذه النظرة هو الكل ونحن تجلياته. الله هو الوجود.. والعدم قبله معدوم. هو الوجود المادي الممتد أزلا وأبدا بلا بدء وبلا نهاية.

وهكذا أقمت لنفسي نظرية تكتفي بالموجود.. وترى أن الله هو الوجود.. دون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات.. ودون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات.. ودون حاجة إلى التماس اللا منظور. وبذلك وقعت في أسر فكرة وحدة الوجود الهندية وفلسفة سبينوزا.. وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة وكلها فلسفات تبدأ من الأرض.. من الحواس الخمس.. ولا تعترف بالمغيبات. ووحدة الوجود الهندية تمضي إلى أكثر من ذلك فتلغي الثنائية بين المخلوق والخالق.. فكل المخلوقات في نظرها هي عيني الخالق. وفي سفر اليوبانيشاد صلاة هندية قديمة تشرح هذا المعنى في أبيات رقيقة من الشعر. إن الإله براهما الذي يسكن قلب العالم يتحدث في همس قائلا: إذا ظن القاتل أنه قاتل والمقتول أنه قتيل فليسا يدريان ما خفي من

أساليبي حيث أكون الصدر لمن يموت والسلاح لمن يقتل والجناح لمن يطير وحيث أكون لمن يشك في وجودي. كل شيء حتى الشك نفسه. وحيث أكون أنا الواحد وأنا الأشياء إنه إله يشبه النور الأبيض.. واحد.. وبسيط.. ولكنه يحتوي في داخله على ألوان الطيف السبعة. وعشت سنوات في هذا الضباب الهندي وهذه الماريجوانا الصوفية ومارست اليوجا وقرأتها في أصولها وتلقيت تعاليمها على أيدي أساتذة هنود. وسيطرت على فكرة التناسخ مدة طويلة وظهرته روايات لي مثل العنكبوت والخروج من التابوت ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع. واعترفت بيني وبين نفسي أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط. ومرة أخرى كان العلم هو دليلي ومنقذي ومرشدي. عكوفي على العلم وعلى الشريحة الحية تحت الميكروسكوب قال لي شيئا آخر. وحدة الوجود الهندية كانت عبارة شعرية صوفية.. ولكنها غير صادقة.. والحقيقة المؤكدة التي يقولها العلم أن هناك وحدة في الخامة لا أكثر.. وحدة في النسيج والسنن الأولية والقوانين.. وحدة في المادة الأولية التي بني منها كل شيء.. فكل الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الأيدروجين والأكسجين.. ولهذا تتحول كلها إلى فحم بالاحتراق.. وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها. ومرة أخرى نتعلم من الفلك والكيمياء والعلوم النووية أن الكربون ذاته وكذلك جميع العناصر المختلفة جاءت من طبخ عنصر واحد في باطن الأفران

النجمية الهائلة هو الأيدروجين. الأيدروجين يتحول في باطن الأفران النجمية إلى هليوم وكربون وسليكون وكوبالت ونيكل وحديد إلى آخر قائمة العناصر وذلك بتفكيكه وإعادة تركيبه في درجات حرارة وضغوط هائلة وهذا يرد جميع صنوف الموجودات إلى خامة واحدة.. إلى فتلة واحدة حريرية غزل منها الكون في تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة. والخلاف بين صنف وصنف وبين مخلوق ومخلوق هو خلاف في العلاقات الكيفية والكمية.. في المعادلة والشفرة التكوينية.. لكن الخامة واحدة.. وهذا سر الشعور بالنسب والقرابة والمصاهرة وصلة الرحم بين الإنسان والحيوان وبين الوحش ومروضه وبين الأنف التي تشم والوهرة العاطرة وبين العين ومنظر الغروب الجميل. هذا هو سر الهارموني والانسجام. إن كل الوجود أفراد أسرة واحدة من أب واحد. وهو أمر لا يستتبع أبدا أن نقول إن الله هو الوجود، وأن الخالق هو المخلوق فهذا خلط صوفي غير وارد. والأمر شبيه بحالة الناقد الذواقة الذي دخل معرضا للرسم فاكتشف وحدة فنية بين جميع اللوحات.. واكتشف أنها جميعا مرسومة على الخامة نفسها.. وبذات المجموعة الواحدة من الألوان، وأكثر من هذا أن أسلوب الرسم واحد. والنتيجة الطبيعية أن يقفز إلى ذهن الناقد أن خالق جميع هذه اللوحات واحد. وأن الرسام هو بيكاسو أو شاجال أو موديلياني.. مثلا.. فالوحدة بين الموجودات تعني وحدة خالقها. ولكنها لا تعني أبدا أن هذه الموجدات هي ذاتها الخالق. ولا يقول

الناقد أبدا إن هذه الرسوم هي الرسام. إن وحدة الوجود الهندية شطحة صوفية خرافية.. وهي تبسيط وجداني لا يصادق عليه العلم ولا يرتاح إليه العقل. وإنما تقول النظرة العلمية المتأملة لظواهر الخلق والمخلوقات، إن هناك وحدة بينها.. وحدة أسلوب ووحدة قوانين ووحدة خامات تعني جميعها أن خالقها واحد لم يشرك معه شريكا يسمح بأسلوب غير أسلوبه. وتقول لنا أيضا إن هذا الخالق هو عقل كلي شامل ومحيط، يلهم مخلوقاته ويهديها في رحلة تطورها ويسلحها بوسائل البقاء، فهو يخلق لبذور الأشجار الصحراوية أجنحة لتستطيع أن تعبر الصحاري الجرداء بحثا عن ماء وعن ظروف إنبات موالية. وهو يزود بيضة البعوضة بكيسين للطفو لتطفو على الماء لحظة وضعها ولا تغرق. وما كان من الممكن للبعوضة أن تدرك قوانين أرشميدس للطفو فتصنع لبيضها تلك الأكياس.

وإنما هو العقل الكلي الشامل المحيط الذي خلق.. هو الذي يزود كل مخلوق بأسباب حياته.. وهو خالق متعال على مخلوقاته.. يعلم ما لا تعلم ويقدر على ما لا تقدر ويرى ما لا ترى. فهو واحد أحد قادر عالم محيط سميع بصير خبير.. وهو متعال يعطى الصفات ولا تحيط به صفات.

***

والصلة دائما معقودة بين هذا الخالق ومخلوقاته فهو أقرب إليها من دمها الذي يجري فيها. وهو المبدع الذي عزف الإبداع هذه المعزوفة الكونية الرائعة. وهو العادل الذي احكم قوانينها وأقامها على نواميس دقيقة لا تخطئ. وهكذا قدم لي العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله.

***

أما القول بأزلية الوجود لأن العدم معدوم والوجود موجود، فهو جدل لفظي لا يقوم إلا على اللعب بالألفاظ. والعدم في واقع الأمر غير معدوم. وقيام العدم في التصور والفكر ينفي كونه معدوما. والعدم هو على الأكثر نفي لما نعلم ولكنه نفيا مطلقا مساويا للمحو المطلق. وفكرة العدم المطلق فرضية مثل فرضية الصفر الرياضي.. ولا يصح الخلط بين الافتراض والواقع ولا يصح تحميل الواقع فرضا نظريا، فنقول اعتسافا إن العدم معدوم، وتعتبر أن هذا الكلام قضية وجودية نبني عليها أحكاما في الواقع.. هذا تناقض صريح وسفسطة جدلية.. وبالمثل القول بأن الوجود موجود.. هنا نفس الخلط.. فالوجود تجريد ذهني والموجود واقع حسي.. وكلمة العدم وكلمة الوجود تجريدات ذهنية كالصفر. واللانهاية لا يصح أن نخلط بينها وبين الواقع الملموس المتعين، والكون الكائن المحدد أمام الحواس.

ويقرر هذا القانون أن الحرارة تنتقل من الساخن إلى البارد.. من الحرارة الأعلى إلى الحرارة الأدنى حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحراري. ولو كان الكون أزليا بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الآباد الطويلة المتاحة وبالتالي لتوقفت كل صور الحياة.. ولبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع والخواء حولها وانتهى كل شيء. إن هذا القانون هو ذاته دليل على أن الكون كان له بدء. والقيامة الصغرى التي تراها حولنا في موت الحضارات وموت الأفراد وموت النجوم وموت الحيوان والنبات وتناهي اللحظات والحقب والدهور هي لمحة أخرى تدلنا على القيامة الكبرى التي لا بد أن ينتهي إليها الكون. إن العلم الحق لم يكن أبدا مناقضا للدين بل إنه دال عليه مؤكد بمعناه. وإنما نصف العلم هو الذي يوقع العمل في الشبهة والشك.. وبخاصة إن كان ذلك العقل مزهوا بنفسه معتدا بعقلانيته.. وبخاصة إذا دارت المعركة في عصر يتصور فيه العقل أنه كل شيء.. وإذا حاصرت الإنسان شواهد حضارة مادية صارخة تزأر فيها الطائرات وسفن الفضاء والأقمار الصناعية.. هاتفة كل لحظة. أنا المادة أنا كل شيء.

الجسد

كلنا من أصل واحد.. من خامة واحدة. ولكن لكل منا فرديته الخاصة به. والفرق بين مخلوق ومخلوق ليس مجرد فرق كمي في الذرات، وإنما هناك فرق أكبر وأعقد في العلاقات بين تلك الذرات وفي كليات الترابط بينها. وتعلم الأن من أمر توليف الجينات الوراثية في الخلية الأولى أن جميع الأجنة الآدمية يتم توليفها من أكثر من عشرين حرفا كيميائيا من بروتين DNA وRNA كما تتألف جميع الكتب والمؤلفات من الحروف الأبجدية، فيكون لكل كتاب روحه وشخصيته ونوعيته كمخلوق مستقل متفرد مع أن جميع الكتب مؤلفة من الحروف نفسها. ويبلغ هذا التفرد لدرجة أن ينفرد كل واحد ببصمة خاصة مختلفة. لا تتشابه بصمتان لاثنين ولو كانا توأمين منذ بدء الخليقة إلى الآن برغم آلاف آلاف وملايين ملايين الملايين من الأفراد. وتعلم الآن أن لكل جسد شفرة كيميائية خاصة به بحيث يصبح من العسير وأحيانا من المستحيل ترقيع جسد بقطعة من جسد آخر.. فما يلبث أن يرفض الجسد الرقعة الغريبة كما لو كانت ميكروبا أو جسما أجنبيا أو استعمارا وهذه هي كبرى المشكلات في جراحات الترقيع ونقل الأعضاء. وأطول مدة عاشها قلب منقول كانت عشرين شهرا وتحت مطر مستمر من حقن التخدير والأقراص المضادة للحساسية لمنع الجسد من رفض العضو

الغريب. ومعنى هذا أن الفردية والتفرد حقيقة جوهرية يشهد بها العلم.. وهي حقيقة لم التفت إليها في بداية تطوري الفكري.. واعتقدت بأن الجوهري والباقي هو المجتمع وليس الفرد.. الإنسان وليس فلانا، والحياة وليس الأحياء.. الوجود لا الموجودات، الكل وليس الآحاد. وهذا أثر من آثار فلسفة وحدة الوجود الهندية القائلة إن الوجود هو الله وهو الباقي أما جميع الموجودات فهي MAYA والمايا هي الوهم الزائل. وكل فرد مصيره إلى فناء حقيقي لا بعث بعده، واعتقدت بأن خلود الفرد هو بقدر ما يترك لأولاده من توجيه وتربية وعلوم ومعارف. أما هو ذاته فإنه ينتهي إلى التراب إلى غير عودة. نصيبنا من الخلود هو ما نضيفه إلى وعاء الكل. أما شخوصا وأفردنا فمصيرها إلى العدم. وما الشخصية؟! لم أفهم من الشخصية في البداية أكثر من أنها ردود فعل ظرفية على مواقف مؤقتة. وبالتالي حينما تنتهي هذه الظروف وتنير الأوقات لا يبقى من الشخصية شيء.. ومآلها أن تتفكك بالشيخوخة نتيجة تفكك ألياف الترابط الموجودة بالمخ وحين تفسد الأعصاب وتفنى بالموت تفنى الذات الخاصة بها. اعتقدت أن الشخصية ليست سوى انفصال محدد لصفات معينة بتأثير تجارب حية وأفعال منعكسة عصبية.. بعضها موروث في شكل غرائز وبعضها مكتسبة عن طريق الممارسة الحسية.. وهذه الممارسة تسجل في المخ وتنطبع على الذاكرة. فإذا انتهى المخ وتعفنت خلايا الذاكرة فلا محل لافتراض بقاء آخر روحاني لهذا الترابط المادي البحت.

بهذا الفهم المادي المسطح تصورت الإنسان في البداية. كنت أقول لنفسي إن الشخصية ليست شيئا واحدا وإنما هي سيل من الشخصيات المختلفة لا تنقطع عن الجريان.. فشخصيتي في سن العاشرة غيرها في سن العشرين غيرها في سن الثلاثين.. وفي كل لحظة هناك شيء يضاف إلى نفسي وشيء ينقص منها.. فأية واحدة من هذه النفوس سوف تبعث وتعاقب؟

وهؤلاء المصابون بانقسام الشخصية أيهما سوف يذهب إلى العالم الآخر الدكتور جيكل أم مستر هايد؟

ونسيت بهذا التلاعب اللفظي الحقيقة الأولية البسيطة أننا حينما نطبع من الكتاب طبعة ثانية فإننا لا نطبع صفحة أو فصلا، وإنما نطبعه كله في أصوله ليصدر كله في أصوله.

وهكذا يكون بعث الروح ككل بكل فصولها وأصولها كما تنبت البذرة من ظلام الأرض حاوية لكل إمكانيات الفروع والأوراق والثمار.

ولكن النظرة المادية التي تميل بطبيعتها إلى التحليل والتشريح والتقطيع كانت هي الغالبة طول الوقت ولهذا كانت تغيب عني دائما صورة الأمور في كليتها وكنت أتصور أني يمكن أن أفهم الروح إذا شرحت الجسد

إذ لا فرق بين الاثنين

الروح هي البدن

والعقل هو المخ

والشخصية هي ردود الفعل ومجموع الأفعال المنعكسة

والعاطفة في نهاية الأمر جوع جسماني.

ونقف الآن وقفة طويلة لنسأل: هل صحيح أن النفس ماهي إلا مجرد حوافز الجوع والجنس ومجموعة الاستشعاريات التي يدرك بها الجسد ما يحتاجه؟

لو قلنا هذا فنحن أمام تفسير مادي متهافت فما هكذا حقيقة النفس ولا حقيقة الانسان.. وأعود إلى صفحات كتاب لغز الموت ولغز الحياة حيث ناقشت الموضوع بالتفصيل.

إن الإنسان ليضحي بلقمته وبيته وفراشه الدافئ في سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والخير والحرية.. فأين حوافز الجوع والجنس هنا؟ والمحارب المقاتل في الميدان الذي يضحي بنفسه على مدفعه في سبيل غد لم يأت بعد.. أين هو من التفسير المادي؟ إننا أمام إثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية

على الجسد ليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة في مرآة داخلية.

تلك الإدارة الهائلة التي تدوس على الجسد وتضحي به هي حقيقة متجاوزة عالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة على

الجسد وليست الجسد تبعا وذيلا.

وإذا كنت أنا الجسد فكيف أتحكم في الجسد وأخضعه؟

وإذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم في الجوع؟

إن مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هي الشهادة الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالي والمفارق الذي تتألف منه الذات الإنسانية.

عن طريق النفس أتحكم في الجسد.

وعن طريق العقل أتحكم في النفس.

وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده.

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الإثبات الواقعي الذي يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلا وتابعا تموت بموته.

والذي يقول إن الإنسان مجموعة وظائف فسيولوجية مادية لا غير عليه أن يفسر أين يذهب ذلك الإنسان في لحظة النوم.

إن جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة في أثناء النوم. وجميع الأفعال المنعكسة واللا إدارية تحدث بانتظام. فالقلب يدق والنفس يتردد والغدد تفرز والأحشاء تتلوى والأعضاء التناسلية تهتاج والذراع ينقبض لشكة الدبوس.. ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم

أشبه بشجرة.. مجرد شجرة.. أو حياة بدائية لا تختلف عن الحياة الحشرية. فأين الأنسان؟

إن النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث، يكشف لنا مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالي الذي يخلق بحضوره في تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر أو نيرون فإذا بذلك الممد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق وإن الفرق لهائل أكبر من أن يفسر بتغير مادي يتم في لحظات.

والماديون يقولون إن النفس حقيقة موضوعية وبالتالي هي مادة.

ونحن نسأل كيف تكون النفس موضوعا؟ وموضوع بالنسبة لمن..؟

موضوع بالنسبة للآخرين؟ وكيف؟! والآخرون لا يرونها ولا يدركون وجودها إلا استنباطا من ظواهر السلوك.. وهي ظواهر أغلبها كاذب.. فكل منا يمثل على الناس بل يمثل على نفسه وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه.

أم هي موضوع بالنسبة لصاحبها؟

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعا فإنها تبرد وتستحيل تحت مشرط التحليل إلى جثة، وتستخفي وتهرب من يديه لأنها لا يمكن أن تكون موضوعا ولا أن توضع تحت مجهر مثل ورقة شجرة، لأن جوهرها بالدرجة الأولى في ذاتيتها، وحقيقتها أنها الوجه الآخر من الصورة

فهي الذات في مقابل الجسد إلى هو موضوع.. وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجها الحقيقة.. فإذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعي فلا بد من الاعتراف بأن هناك في الوجود شيئا آخر غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة الذي هو الذات.

وتقودنا عملية الإدراك إلى إثبات أكيد بأن هناك شيئين في كل لحظة..

الشيء المدرك والنفس المدركة خارجه.

وما كنا نستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمني المستمر.

ولو كان إدراكنا يقفز مع عقرب الثواني كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثواني أبدا.. ولا نصرم إدراكنا كما تنصرم الثواني بدون أن يلاحظ شيئا و إنه لقانون معروف إن الحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها.

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها في الفلك نفسه.. وإنما لا بد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها.. ولهذا تأتي عليك لحظة وأنت في أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف هل هو واقف أم متحرك لأنك

أصبحت قطعة واحدة معه في حركته.. لا تستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب الأسانسير إلى

الرصيف الثابت في الخارج.

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو الأرض.. كما أنه لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من القمر.

وهكذا دائما.. لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها (........)

وأنت تدرك مرور الزمن لا بد أن تكون ذاتك المدركة خارج الزمن. وهي نتيجة مذهلة تثبت لنا الروح أو الذات المدركة كوجود مستقل متعال على الزمن ومتجاوز له وخارج عنه.

فها نحن أولا أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق في الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر معه ويشيخ معه ويهرم معه (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظ همن عتبة السكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هو على حاله حيا حياته الخاصة غير الزمنية.. ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذي أطلقته الأديان وهو الروح.

وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحي بداخله.. ويدرك أنه وجود مغاير في نوعيته للوجود الخارجي

النابض المتغير الذي يتدفق حولنا في شلال من التغيرات.

كل منا يستطيع أن يحس بداخله حالة حضور وديمومية وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة دائما ومغايرة تماما للوجود المادي المتغير المتقلب النابض مع الزمن خارجه.

هذه هي الحالة الداخلية التي ندركها في لحظات الصحو الداخلي والتي أسميتها حالة (حضور).. هي المفتاح الذي يقودنا إلى الوجود الروحي بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذي اسمه الروح.. أو المطلق.. أو المجرد.

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح وندرك الحق ونميزه الباطل وندرك العدل ونميزه من الظلم.. فنحن في كل مرة نقيس بمعيار.

.. بمسطرة منفصلة عن الحادث الذي نقيسه.. فنحن إذن نقيس من العتبة نفسها.. عتبة الروح.. فالوجود الروحي يمثله فينا أيضا الضمير ويدل عليه أيضا الإحساس بالجمال.. وتدل عليه الحاسة الخفية التي تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح.. وتدل عليه الحرية الداخلية..

فالروح هي منطقة السرية والحرية المطلقة والاختيار والتمييز.

وحينما نعيش حياتنا لا نضع اعتبارا للموت ونتصرف في كل لحظة دون أن نحسب حسابا للموت.. وننظر إلى الموت كأنه اللامعقول.. فنحن في الواقع نفكر ونتصرف بهذه الأنا العميقة التي هي الروح والتي لا تعرف الموت بطبيعتها.

فالموت بالنسبة للروح التي تعيش خارج منطقة الزمن هو بالنسبة لها.. لا أكثر من تغيير ثوب.. لا أكثر من انتقال..

أما الموت كفناء وكعدم فهو أمر لا تعرفه، فهي أبدا ودائما كانت حالة حضور وشخوص.. إنها كانت دائما هنا.

إنها الحضرة المستمرة التي لم ولا يطرأ عليها طارئ الزوال. وكل ما سوف يحدث لها بالموت.. أنها سوف تخلع الثوب الجسدي الترابي.. وكما تقول الصوفية تلبس الثوب البرزخي.. ثم تخلع الثوب البرزخي لتلبس الثوب الملكوتي.. ثم تخلع الثوب الملكوتي لتلبس الثوب الجبروتي..

كادحة من درجة إلى درجة ارتفاعا إلى خالقها.. كل روح ترتفع بقدر صفائها وشفافيتها وقدرتها على التحليق.. على حين تتهابط الأرواح الكثيفة إلى ظلمات سحيقة وتنقضي عليها الآباد وهي تحاول الخلاص.

وأترك الصوفيين لمشاهداتهم حتى لا نضيع معهم في التيه، وليس هدفي من هذه الدراسة عبور حاجز الموت لمعرفة ما وراءه، فهذا طمع في غير مطمع ورغبة في مستحيل.

ويكفي أن أقف القارئ ليتأمل نفسه ويكشف ذاته العميقة الحاكمة الآمرة (.....) تلك التي أسميها الروح.. والتي استدللت عليها بأبلغ دلالة ...بشعور الحضرة التي يشعر بها كل منا في داخل نفسه.

تلك الحضرة المستمرة التي لا يطرأ عليها طارئ الزوال ولا تهب عليها رياح التغير وكأنها العين المفتوحة داخلها على الدوام.

ذلك الصحو الداخلي.

ذلك النور غير المرئي في نفوسنا والذي نرى على ضوئه طريق الحق ونعرف طريق القبح من الجمال والخير من الشر.

تلك العتبة إلى نرصد من فوقها حركة الزمن وندرك مروره.. ونرى مرور الأشياء وندرك حركتها.

تلك النقطة في داخل الدائرة.

المركز الذي تدور حوله أحداثنا الدنيوية والزمنية وهو شاخص في مكانه لا يتحرك ولا ينصرم له وجود.

الروح..

حقيقتنا المطلقة التي هي برغم ذلك لغز.

هل الروح أبدية.. أو أن لها زمنا آخر ذا تقويم مختلف.. اليوم فيه بألف سنة؟

وما العلاقة بين الروح والجسد؟

وما العلاقة بين العقل والمخ؟

وما العلاقة بين الذاكرة والتحصيل واستظهار العلوم؟

إنه موضوع آخر له شرح يطول.

***

الروح

خطر لي ذات مساء أن أقوم ببحث في سراديب ذاكرتي.. فأرصد في ورقة كل ما أحفظه من أرقام.. رقم الباسبور ورقم العربة ورقم الشقة ورقم البطاقة العائلية وتليفونات من أعرف من الأصدقاء والزملاء وتليفونات المصالح والجرائد وأرقام جدول الضرب التي أحفظها غيبا وعمليات الجمع والطرح والقسمة الأولية التي أعرفها بالبداهة وتواريخ ميلادي وميلاد أولادي وثوابت الرياضة والطبيعة مثل النسبة التقريبية وسرعة الضوء وسرعة الصوت ومجموع زوايا المثلث ودرجة غليان الماء وما تعلمته في كلية الطب عن نسبة سكر الدم وعدد الكريات الحمراء وعدد الكريات البيضاء وحجم الدم وسرعة النبض وسرعة التنفس وجرعات العقاقير.. وفي لحظات تجمعت تحت يدي عدة صفحات من مئات الأرقام.. تداعت في ذهني ولمعت كالبرق وكأني حاسب الكتروني وكان المشهد مذهلا.

كيف أحفظ هذا الكم الهائل من الأعداد.. كل عدد يبلغ طوله ستة أو سبعة أرقام؟

وأين تختفي هذه الأرقام في تلافيف المخ؟

وكيف يتم استدعاؤها فتلمع في الوعي كالبرق الخاطف؟

وبأي أسلوب تصطف هذه الأرقام في أعداد متمايزة.. كل عدد له مذكرة تفسيرية ملحقة به تشرح

دلالته ومعناه؟ وكيف تتراكم المئات والمئات من هذه الأرقام في ذاكرتنا ولا تختلط ولا يطمس بعضها بعضا؟

وغير الأرقام.. هناك الأسماء والاصطلاحات والكلمات.. والأشكال والوجوه.. تزدحم بها رأسنا وهناك معالم الطبيعة التي طفنا بها والأماكن التي زرناها.. وهناك الروائح.. ومع كل رائحة صورة لامرأة عرفناها أو مشهد نذكره ولواعج وأشواق وقصص وسيناريو من آلاف اللقطات.. وهناك الطعوم.. والنكهات.. يأتي الطعم في الفم فيسيل اللعاب شوقا أو يتحرك الغثيان اشمئزازا.. ومع كل طعم.. يجري شريط يحكي عن وليمة دسمة ذات يوم أو جرعة دواء مريرة و مرض طويل ممض و أوجاع أليمة..حتى لمسة النسيم الحريرية ورائحة أصداف الشاطئ تحفظها لنا الذاكرة فتهب علينا لفحات الهواء الرطيب مع ذكراها وكأننا نعيشها من جديد.

حتى الأصوات والهمسات والوشوشات والصخب والصراخ والضجيج والعويل والنشيج.

وفاصل من موسيقى.

ومقطع من أغنية..

ولطمة على وجه..

وقرقعة عصا على الظهر.

وحشرجة ألم..

كل هذا تحفظه الذاكرة وتسجله في دقة شديدة وأمانة ومعه بطاقة بالتاريخ والمناسبة وأسماء الأشخاص وظروف الواقعة ومحضر بالأقوال... معجزة.. اسمها الذاكرة.

إن معنا رقيبا حقيقيا يكتب بالورقة والقلم كل دبة نمل في قلوبنا؟

وما نتخيل أحيانا أننا نسيناه نكتشف أننا لم ننسه وأنه موجود يظهر لنا فجأة في لحظة استرخاء أو حلم أو بعد كأس أو في عيادة طبيب نفسي وأحيانا يظهر زلة لسانه أو خطأ إملائي.

لا شيء ينسى أبدا.. ولا شيء يضيع.. والماضي مكتوب بالفعل لحظة بلحظة ودقة قلب بدقة قلب.

والسؤال الكبير بل اللغز المحير هو.. أين توجد هذه الصورة.. أين هذا الأرشيف السري؟

وهو سؤال حاول أن يجيب عليه أكثر من عالم وأكثر من فيلسوف. الفلاسفة الماديون قالوا إن الذاكرة في المخ نتيجة الفعل العصبي للحوادث تماما كما يحدث لشريط ريكوردر عند التسجيل وإن هذه اللفائف المسجلة

تحفظ بالمخ وإنها تدور تلقائيا لحظة محاولة التذكر فتعيد ما كان في أمانة ودقة.

الذاكرة مجرد نقش وحفر على مادة الخلايا. ومصيرها أن تبلى وتتآكل كما تبلى النقوش وتتآكل وينتهي شأنها حينما ينتهي الإنسان بالموت وتتآكل خلاياه.

رأي مريح وسهل ولكنه أوقع أصحابه في مطلب لم يستطيعوا الخروج منه. فإذا كانت الذاكرة هي مجرد طارئ مادي يطرأ على مادة الخلايا فينبغي أن تتلف الذاكرة لأي تلف مادي مناظر في الخلايا المخية.. وينبغي أن يكون هناك توازن بين الحادثين.. كل نقص في الذاكرة معينة لا بد أن يقابله تلف في الخلايا المختصة المقابلة.. وهو أمر لا يشاهد في إصابات المخ وأمراضه.. بل ما يشاهده هو العكس.

يصاب مركز الكلمات فلا تصاب ذاكرة الكلمات بأي تلف، وإنما الذي يحدث هو عاهة في النطق.. في الأداء الحركي للعضلات التي تنطق الكلمات.

إن الموتور هو الذي يتلف بتلف الخلايا.. أما الذاكرة.. أما صورة الكلمات في الذهن فتظل سليمة.

وهذا دليل على أن وظيفة المخ ليست الذاكرة ولا التذكر. وإنما المخ هو مجرد سنترال يعطي التوصيلة. هو مجرد أداة تعبر به الكلمة عن نفسها في وسط مادي فتصبح صوتا مسموعا.. كما يفعل الراديو حينما يحول الموجة اللاسلكية إلى نبض كهربائي مسموع.. فإذا أصيب الراديو بعطل فلا يكون معنى هذا العطل أن تتعطل موجة الأثير.. وإنما فقط يحدث شلل في جهاز

النطق في الراديو. أما الموجة فتظل سليمة على حالها يمكن أن يلتقطها راديو آخر سليم.

وهذا حال الذاكرة.. فهي صور وأفكار ورؤى مستقلة مسكنها ومستقرها الروح وليس المخ ولا الجسد بحال.. وما المخ إلا وسيلة لنقل هذه الصور لتصبح كلمات منطوقة مسموعة في عالم مادي.

فإذا أصيب المخ بتلف.. يصاب النطق بالتلف ولا تصاب الذاكرة لأن الذاكرة حكمها حكم الروح ولا يجري عليها ما يجري على الجسد.

التوازي مفقود بن الاثنين مما يدل على أننا أمام مستويين (جسد وروح) لا مستوى واحد أسمه المادة.

وفي حوادث النسيان المرحلي.. الذي تنسى فيه مرحلة زمنية بعينها (وهو الموضوع المحبب عن مؤلفي السينما المصريين).. ينسى المصاب فترة زمنية بعينها فتمحى تماما من وعيه وتكشط من ذاكرته.

وكان يتحتم تبعا للنظرية المادية أن نعثر على تلف مخي جزئي مقابل ومناظر للفترة المنسية.

لكن من الملاحظ أن أغلب تلك الحالات هي حالات صدمة نفسية عامة وليست تلفا جزئيا محددا.

مرة أخرى نجد أن التوازي مفقود بين حجم الحادث وبين حجم التلف المادي.

وفي حالات التلف المادي الشديد للمخ نتيجة الكسور أو الالتهابات أو النمو السرطاني، حينما يبدأ النسيان الكامل يلاحظ دائما أن هذا النسيان يتخذ نظاما خاصا فتنسى في البداية أسماء الأعلام وآخر ما ينسى هي الكلمات الدالة على الأفعال.

وهذا التسلسل المنتظم في النسيان في مقابل إصابة غير منتظمة وفي مقابل تلف مشوش أصاب المخ كيفما اتفق، هو مرة أخرى عدم تواز له معنى.. فهنا إصابة في الذاكرة لا علاقة لها من حيث المدى والكم والنظام بالإصابة المادية للمخ.

وهكذا تتحطم النظرية المادية للذاكرة على حائط مسدود.

ونجد أنفسنا أمام ظاهرة متعالية على الجسد وعلى خلايا المخ.

وسوف تموت وتتعفن الخلايا المخية وتظل الذاكرة شاخصة حية بتفصيلاتها ودقائقها تذكرنا في حياتنا الروحية الثانية بكل ما فعلناه.

ولم يكن الجسد إلا جهازا تنفيذيا للفعل وللإفصاح عن النوايا في عالم الدنيا المادي.. كان مجرد أداة للروح ومطية لها.

لم يكن المخ غلا سنترالا.. وكابلات توصيل.

وكل دوره هو أن يعطي التوصيلة من عالم الروح إلى عالم المادة أو كما يقول برجسون DONNER LA COMMUNICATION .... يعطي الخط.

كابلات الأعصاب تنقل مكنون الروح وتحوله إلى نبض إلكتروني لتنطق به عضلات اللسان على الطرف الآخر... كما يفعل الراديو بالموجة اللاسلكية وهكذا نتبادل الكلام كأجساد في عالم مادي.. فإذا ماتت أجسادنا عدنا أرواحا.. لنتذاكر ما فعلناه في دنيانا لحظة بلحظة حيث كل حرف وكل فعل مسجل.

بل إن هناك نظريات علمية تمضي لأكثر من هذا فترى أن التحصيل هو في ذاته عملية تذكر لعلم قديم مكنوز ومسطور في الروح.. وليس تعلما من السبورة.. فنحن لا نكتشف أن 2 × 2 = 4 من عدم، وإنما نولد بها.. وكل ما نفعله أننا نتذكرها.. وكذلك بداهات الرياضة والهندسة والمنطق.. كلها بداهات نولد بها مكنوزة فينا.. وكل ما يحدث أننا نتذكرها تذكرنا بها الخبرة الدنيوية كل لحظة.

وبالمثل شخصيتنا.. نولد بها مسطورة في روحنا.. وكل ما يحدث أن الواقع الدنيوي يقدم المناسبات والملابسات والقالب المادي لتفصح هذه الشخصية عن خيرها وشرها.. فيسجل عليها فعلها.

والتسجيل هو الأمر الجديد الذي يتم في الدنيا.

الانتقال من حالة النية إلى حالة التلبس.

وهذا ما تعبر عنه الأديان بأن يحق القول على المذنب بعد الابتلاء والاختبار في الدنيا.. فتحق عليه الضلالة وتلزمه رتبته.

وهو أمر قد سبق إليه علم الله.. علم الحصر لا علم الإلزام.. فالله لا يلزم أحدا بخطيئة ولا يقهره على شر.. وإنما كل واحد يتصرف على وفاق طبيعته الداخلية فعله هو ذاته.. وليس في ذلك أي معنى من معاني الجبر.. لأن هذه الطبيعة الداخلية هي التي نسميها أحيانا الضمير وأحيانا السريرة وأحيانا الفؤاد ويسميها الله (السر).

(يعلم السر وأخفى).

ونقول عنها في تعبيراتنا الشعبية عن الموت (طلع السر الإلهي) أي صعدت الروح إلى بارئها..

هذا السر المطلسم هو ابتداء حر ومبادرة أعتقها الله من كل القيود ليكون فعلها هو ذاتها وليكون هواها دالا عليها.

ومن هنا لا يصح القول بالحتميات في المجال الإنساني أمثال حتمية الصراع الطبقي والجبرية التاريخية لأن الإنسان مجال حر ولس مسمارا أو ترسا في ماكينة.

وكما لا يمكن التنبؤ بما يأتي به الغد في حياة فرد فإنه يستحيل القول بالحتم أو الجبر في مجال المجتمعات

والتاريخ.. وكل ما يمكن القول به هو الترجيح والاحتمال بناء على مقدمات إحصائية.. وهو ترجيح يخطئ ويصيب ويحدث فيه تفاوت في طرفيه.. فمعدل عمر الإنسان في انجلترا مثلا هو ستون سنة.. وهذا المعدل معدل إحصائي مأخوذ من متوسطات أرقام.. وهو غير ملزم بالنسبة للفرد، فقد يعيش فرد مثل برناردشو في انجلترا أكثر من تسعين سنة ويتجاوز المعدل. وقد يموت في سن العشرين في حادثة. وقد يموت وهو طفل بمرض معد.. ثم إن المعدل ذاته قابل للتذبذب من طرفيه صعودا وهبوطا من سنة لأخرى.. فلا يصح القول بالحتمية والجبر في هذا الموضوع.. ولا يجوز إخضاع المجال الإنساني سواء كان فردا أو مجتمعا أو تاريخا لقالب نظري أو معادلة أو حسبة إحصائية أو فرض فلسفي.

إنما تأتي فكرة الحتمية الخاطئة من التصور الخاطئ للإنسان على أنه جسد بلا نفس وبلا روح وبلا عقل.. واعتبار النفس والعقل مجرد مجموعة الوظائف العليا للجهاز العصبي.

ومن الواقع المشاهد من خضوع الجسم للقوانين الفسيولوجية يستنتج المفكر المادي أن الإنسان والإنسانية بأسرها مغلولة في القوانين المادية. وهكذا يجعل من الإنسان كتلة مادية أشبه بكتلة القمر محكومة في دورانه حول الأرض والشمس بالحتميات الفلكية.

وينسى أن الإنسان يعيش في مستويين.

مستوى الزمن الخارجي الموضوعي المادي.. زمن الساعة.. وفي هذا الزمن يرتبط بالمواعيد والضرورات الاجتماعية ويعيش في أسر القوانين والحتميات.

ومستوى زمنه الخاص الداخلي.. زمن الشعور وزمن الحلم.. وفي هذا المستوى يعيش حياة حرة بالفعل.. فيفكر ويحلم ويبتكر ويخترع ويقف من كل المجتمع والتاريخ موقف الثورة.. بل يستطيع أن ينقل هذه الثورة الداخلية إلى فعل خارجي فيقلب المجتمع ويغير التاريخ من أساسه كما حدث في كل الثورات التقدمية.

هذه الثنائية هي صفة ينفرد بها الإنسان.

وهذه الحياة الداخلية الحرة يختص بها الإنسان دون الجماد

وهذه النفس التي يملكها تتصف بصفات مختلفة مغايرة لصفة الجماد.. فهنا نحن أمام وحدة لا امتداد لها في المكان..

هي الـ (أنا) تتصف بالحضور والديمومة والشخوص والكينونة والمثول الدائم في الوعي.. ثم هي تفرض نفسها على الواقع الخارجي وتغيره.. وتفرض نفسها على الجسد وتحكمه وتقوده وتعلو على ضروراته..

فتفرض عليه الصوم والحرمان اختيارا. بل قد تقوده إلى الموت فداء وتضحية.. مثل هذه النفس لا يمكن أن تكون مجرد ناتج ثانوي من نواتج الجسد وذيلا تابعا له ومادة تطورت منه. مثل هذه النظريات المادية لا تفسر لنا شيئا.. وإنما لا بد لنا أن نسلم (....) النفس عالية على الجسد متعالية عليه وأنها من جوهر مفارق لجوهر (.....) فهي في واقع الأمر تستخدم الجسد كأداة لأغراضها ومطية لأهدافها كما يستخدم العقل المخ مجرد توصيلة أو سنترال.

ولا بد أن يتداعى إلى ذهننا الاحتمال البديهي من أن هذه النفس لا يمكن أن يجري عليها ما يجري على الجسد من موت وتآكل وتعفن بحكم جوهرها الذي تشعر به متصفا بالحضور والديمومة والشخوص في الوعي طوال الوقت.. فلا تتآكل كما يتآكل الجسد ولا هي تقع كما يقع الشعر ولا هي تبلى الأسنان.

وإنه لأمر بديهي تماما أن نتصور بقاءها بعد الموت.

فإذا نحن تأملنا ما يصاحب أفعالنا من تردد قبل اختيار القرار ثم شعور بالمسؤولية في أثناء العمل ثم ندم أو راحة بعد تمامه.. فنحن نستنتج أننا أمام حالة مراقبة فطرية وفكرة ملحة بالحساب وبأن هناك خطأ وصوابا. وإننا نعلم بداهة وبالفطرة التي ولدنا بها أن العدل والنظام هو ناموس الوجود وأن المسؤولية هي القاعدة.

ويفترض لنا هذا الشعور الفطري القهري أن الظالم الذي أفلت من عقاب الأرض والقاتل الذي أفلت من محاسبة القانون البري الأرضي.. لا بد أن يعاقب ويحاسب.. لأن العالم الذي نعيش فيه يفصح عن النظام والانضباط من أصغر ذرة إلى أكبر فلك.. والعبث غير موجود إلا في عقولنا وأحكامنا المنحرفة.

وفكرة العدل والنظام وضرورة العدل عالم آخر يتم فيه العدل والنظام والمحاسبة.

كل هذا علم نولد به.. وحقيقة تقول بها الفطرة والبداهة.

ولا غرابة في أن يعترف مفكر غربي ألماني وهو (عمانويل كانت) بهذه الحقيقة في كتابه (نقد العقل العلمي).

ولا غرابة في أن يصل إلى هذه النتيجة السليمة دون أن يقرأ قرآنا.

إنها الفطرة والبداهة التي تقوم عليها جميع العلوم.

ولا حاجة لأن يقرأ العقل السليم الكتاب المقدس ليكتشف أن له روحا وأن له حياة بعد الموت وأن هناك حسابا.. فالفطرة السليمة تضيء لصاحبها الطريق إلى هذه الحقائق.

وهذا العلم الذي نولد به.. وهذه البداهة التي نولد بها.. تقوم شاهدة على جميع العلوم المكتسبة وملزمة لها..

فجميع العلوم المكتسبة يجوز فيها الخطأ والصواب.. أما العلم الذي نولد به فهو جزء من نظام الكون المحكم.. وهو الحقيقة الأولى التي نعمل على ضوئها نرى جميع الحقائق الفرعية.. وهي المعيار والمقياس.. وإذا فسد المعيار فسد كل شيء وأصبح كل شيء عبثا في عبث وهو أمر غير صحيح.

وإذا اتهمنا بالبداهة فإن جميع العلوم والمعارف سوف ينسحب عليها الاتهام وسوف ننهدم لأنها تقوم أصلا على البداهات. فنحن هنا أمام أصل من أصول المعرفة ومرجع لا يجوز الشك فيه (لأن هذا المرجع شأنه شأن الحياة ذاتها) نحن أمام متن هو لحم المعرفة ودمها. وكما نأتي إلى الحياة مزودين بعضلات لنتحرك بها وندافع عن أنفسنا كذلك نولد مزودين بالبداهات الأولى لنحتكم إليها في إدراك الحق من الباطل والصواب من الخطأ. وأعلى درجات المعرفة هي ما يأتيك من داخلك، فأنت تستطيع أن تدرك وضعك (هل أنت واقف أو جالس أو راقد) دون أن تنظر إلى نفسك.. يأتيك هذا الإدراك وأنت مغمض العينين.. يأتيك من داخلك.. وتقوم هذه المعرفة حجة على أية مشاهدة. وحينما تقول.. أنا سعيد.. أنا شقي.. أنا أتألم.. فكلامك يقوم حجة بالغة ولا يجوز تكذيبه بحجة منطقية.. بل إن تناول هذا الأمر بالمنطق هو تنطع

ولجاجة لا معنى لها.. فلا أحد أعرف بحال نفسك من نفسك ذاتها. وبالمثل شهادة الفطرة وحكم البداهة هي

حجة على أعلى مستوى.. وحينما تقول الفطرة والبداهة مؤيدة بالعلم والفكر والتأمل.. حينما نقول بوجود الروح والنفس وبالحرية وبالمسئولية والمحاسبة، وحينما توحي بالتصرف على أساس أن في الكون نظاما.. فنحن هنا أمام حجة على أعلى مستوى من اليقين. وهو يقين مثل يقين العيان أو أكثر.. فالفطرة عضو مثل العين نولد به. وهو يقين أعلى من يقين العلم.. لأن الصدق العلمي هو صدق إحصائي والنظريات العلمية تستنتج من متوسطات الأرقام.. أما حكم البداهة فله صفة القطع والإطلاق 2 × 2 = 4 هي حقيقة مطلقة صادقة صدقا مطلقا، لا يجوز عليها ما يجوز من نسخ وتطور وتغير في نظريات العلم لأنها مقبولة بديهية.

1 + 1 = 2 مسألة لا تقبل الشك لأنها حقيقة ألقتها إلينا الفطرة من داخلنا وأوحت بها البداهة.

وهي معرفة أولى جاءت إلينا مع شهادة الميلاد. لو أدرك الإنسان هذا لأراح واستراح.. ولوفر على نفسه كثيرا من الجدل والشفشفة والسفسطة والمكابرة في مسألة الروح والجسد والعقل والمخ والحرية والجبر والمسئولية والحساب ولا اكتفى بالإصغاء إلى ما تهمس به فطرته وما يفتي به قلبه وما تشير به بصيرته. وذرة من الإخلاص أفضل من قناطير من الكتب. لنصغي إلى صوت نفوسنا وشمس بصائرنا في إخلاص شديد دون محاولة تشويه ذلك الصوت البكر بحبائل المنطق وشراك الحجج.

وعلى من يشك في كلامي.. وعلى هواة الجدل والنقاش والمقارعة المنطقية أن يعودوا فيقرأوا مقالي من أوله.

العدل الأزلي

الذي رأى قطة نتلصص على مائدة في خلسة من أصحابها ثم تمد فمها لتلقف قطعة سمك. الذي رأى مثل تلك القطة ونظر إلى عينيها وهي تسرق لن ينسى أبدا تلك النظرة التي ملؤها الإحساس بالذنب. إن القطة وهي الحيوان الأعجم تشعر شعورا مبهما أنها ترتكب إثما.. فإذا لحقها العقاب ونالت ضربة على رأسها فإنها تغض من بصرها وتطأطئ رأسها وكأنها تدرك إدراكا مبهما أنها نالت ما تستحق. هو إحساس الفطرة الأولى الذي ركبه الخالق في بنية المخلوق.. إنه الحاسة الأخلاقية البدائية نجد أثرها حتى في الحيوان الأعجم. والقط إذ يتبرز ثم ينثني على ما فعل ويهيل عليه التراب حتى يخفيه عن الأنظار. ذلك الفعل الغريزي يدل على إحساس بالقبح وعلى المبادرة بستر هذا القبح. ذلك الفعل هو أيضا فطرة أخلافية لم تكتسب بالتعلم.. وإنما بهذه الفطرة ولد كل القطط. وبالمثل غضبة الجمل بعد تكرار الإهانة من صاحبه وبعد طول الصبر والتحمل.. وكبرياء الأسد وترفعه عن أن يهاجم فريسته غدرا من الخلف و إنما دائما من الأمام ومواجهة.. ولا يفترس إلا ليأكل.. ولا يفكر في أكل أو افتراس إلا إذا جاع. كل هذه أخلاق مفطورة في الحشوة الحية وفي الحيوان. ثم الوفاء الزوجي عند الحمام. والولاء للجماعة في الحيوانات التي تتحرك في قطعان.

نحن أمام الأسس الأولى للضمير.. نكتشفها تحت الجلد وفي الدم لم يعلمها معلم وإنما هي في الخلقة.

ونحن إذ نتردد قبل الفعل نتيجة إحساس فطري بالمسئولية.. تم نشعر بالعبء في أثناء الفعل نتيجة تحري الصواب.. ونشعر بالندم بعد الفعل نتيجة الخطأ. هذا المشاعر الفطرية التي يشترك فيها المثقف والبداني والطفل هي دليل على شعور باطن بالقانون والنظام وأن هناك محاسبة.. وأن هناك عدالة.. وأن كل واحد فينا مطالب بالعدالة كما أن له الحق في أن يطلبها.. وأن هذا شعور مفطور فينا منذ الميلاد جاءنا من الخالق الذي خلفنا ومن طبيعتنا ذاتها.

فإذا نظرنا إلى العالم المادي من الذرات المتناهية في الصغر إلى المجرات المتناهية في العظم وجدنا كل شيء يجري بقوانين وبحساب وانضباط. حتى الإلكترون لا ينتقل من مدار إلى مدار في فلك النواة إلا إذا أعطى أو أخذ حزما من الطاقة تساوي مقادير انتقاله وكأنه راكب في قطار لا يستطيع أن يستقل القطار إلا إذا دفع ثمن التذكرة.

وميلاد النجوم وموتها له قوانين وأسباب. وحركة الكواكب في دولاب الجاذبية لها معادلة. وتحول المادة إلى طاقة وتحول جسم الشمس إلى نور له معادلة. وانتقال النور له سرعة. وكل موجة لها طول ولها ذبذبة ولها سرعة.

كما أن كل معدن له طيف وله خطوط امتصاص مميزة يعرف بها في جهاز المطياف. وكل معدن يتمدد بمقدار ويتقلص بمقدار بالحرارة والبرودة.. وكل معدن له كتلة وكثافة ووزن ذري جزيني وثوابت وخواص. وأينشتين أثبت لنا أن هناك علاقة بين كتلة الجسم وسرعته.. وبين الزمن ونظام الحركة داخل مجموعة متحركة.. وبين الزمان والمكان.

والذي يفرق المواد إلى جوامد وسوائل وغازات هو معدل السرعة بين جزيئاتها.

ولأن الحرارة تجعل من هذه السرعة فإنها تستطيع أن تصهر الجوامد وتحولها إلى سوائل ثم تبخر السوائل وتحولها إلى غازات.

كما أن الكهرباء تتولد بقوانين.. كما يتحرك التيار الكهربائي ويفعل ويؤثر على أساس من فرق الجهد والشدة.

كما تتوقف جاذبية كل نجم على مقدار جرمه وكتلته. والزلازل التي تبدو أنواعا من الفوضى لها هي الأخرى نظام وأحزمة وخطوط تحدث فيها ويمكن رسم وتتبع الأحزمة الزلزالية بطول الكرة الأرضية وعرضها.

والكون كله جدول من القوانين المنضبطة الصريحة التي لا غش فيها ولا خداع.

سوف يرتفع صوت ليقول: وما رأيك فيما نحن فيه من الغش والخداع والحروب والمظالم وقتل بعضنا البعض بغيا وعدوانا.. أين النظام هنا؟ وسوف أقول له: هذا شيء آخر.. فإن ما يحدث بيننا نحن دولة بني أدم يحدث لأن الله أخلفنا في الأرض واقامنا ملوكا نحكم وأعطانا الحرية.. وعرض علينا الأمانة فقبلناها. وكان معنى إعطائنا الحرية أن تصبح لنا إمكانية الخطأ والصواب. وكان كل ما نرى حولنا في دنيانا البشرية هو نتيجة هذه الحرية التي أسأنا استعمالها. إن العوضي هي فعلنا نحن وهي النتيجة المترتبة على حريتنا. أما العالم فهو بالغ الذروة في الانضباط والنظام.

ولو شاء الله لأخضعنا نحن أيضا للنظام قهرا كما أخضع الجبال والبحار والنجوم والفضاء.. ولكنه شاء أن يفني عنا القهر لتكتمل بذلك عدالته.. وليكون لكل منا فعله الخاص الحر الذي هو من جنس دخيلته. أراد بذلك عدلا ليكون بعثنا بعد ذلك على مقامات ودرجات هو إحقاق الحق ووضع كل شيء في نصابه. والحياة مستمرة. وليس ما نحياه من الحياة في دنيانا هو كل الحياة.

ومعنى هذا أن الفترة الاعتراضية من المظالم والفوضى في فترة لها حكمتها وأسبابها وأنها عين العدالة من حيث هي امتحان لما يلي من حياة مستمرة أبدا. إن دنيانا في فترة موضوعة بين قوسين بالنسبة لما بعدها وما قبلها، وهي

ليست كل الحقيقة ولا كل القصة.. وإنما هي فصل صغير من رواية سوف تتعدد فصولا.

وقد أدرك الإنسان حقيقة البعث بالفطرة. أدركها الإنسان البدائي. وقال بها الأنبياء أخبارا عن الغيب. وقال بها العقل والعلم الذي أدرك أن الإنسان جسد وروح كما ذكرنا في فصول سابقة.. وإن الإنسان يستشعر بروحه من إحساسه الداخلي

العميق المستمر بالحضور برغم شلال التغيرات الزمنية من حوله. وهو احساس ينبئ بأنه يملك وجودا داخليا متعاليا على التغيرات متجاوزا للزمن والفناء والموت.

وفلاسفة مثل عمانويل كانت وبروجسون وكير كجارد، لهم وزنهم في الفكر قالوا بحقيقة الروح والبعث.

وفي كتاب جمهورية أفلاطون.. فصل رائع عن خلود الروح. هي حقيقة كانت تفرض نفسها إذن على أكبر العقول وعلى أصغر العقول وكانت تقوم بداهة يصعب إنكارها. ولكن أهم برهان على البعث في نظري هو ذلك الإحساس الباطني

العميق القطري الذي نولد به جميعا ونتصرف على أساسه. إن هناك نظاما محكما وقانونا عادلا. ونحن نطالب أنفسنا ونطالب غيرنا فطريا وغريزيا بهذا العدل. وتحترق صدورنا إذا لم يتحقق العدل. ونحارب لنرسي دعائم ذلك العدل.

وهذا يعني أنه سوف يتحقق بصورة ما لا شك فيها.. لأنه حقيقة مطلقة فرضت نفسها على عقولنا وضمائرنا طول الوقت.

وإذا كنا نرى ذلك العدل يتحقق في دنيانا فلأننا لا نرى كل الصورة ولأن دنيانا الظاهرة ليست هي كل الحقيقة.

والا فلماذا تحترق صدورنا لرؤية الظلم ولماذا نطالب غيرنا دائما بأن يكون عادلا.. لماذا نحرص كل الحرص ونشتغل غضبا على ما لا وجود له. يقول لنا المفكر الهندي وحيد الدين خان: إذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء فكذلك الظمأ إلى العدل لا بد أنه يدل على وجود العدل.. ولأنه لا عدل في الدنيا.. فهو دليل على وجود الآخرة مستقر العدل

الحقيقي.

إن شعورنا الداخلي الفطري هو الدليل القطعي على أن العدل حق.. وإن كنا لا نراه اليوم.. فإننا سوف نراه غدا.. هذا توكيد يأتينا دائما من داخلنا.. وهو الصدق لأنه وحي البداهة. والبداهة والفطرة جزء من الطبيعة المحكمة الخالية من الغش وهي قانون من ضمن القوانين العديدة التي ينضبط بها الوجود. سوف يرتفع صوت ليقول: لندع عالم الأدميين ونسأل: لماذا خلق الله الخنزير خنزيرا والكلب كلبا.. والحشرة حشرة.. ما ذنب هذه المخلوقات لتخلق على تلك الصور المنحطة.. وأين

العدل هنا؟ وإذا كان الله سوف يبعث كل ذي روح فلماذا لا يبعث القرد والكلب والخنزير؟

والسؤال وجيه ولكن يلقيه عقل لا يعرف إلا نصف القضية.. أو سطرا واحدا من ملف التحقيق.. ومع ذلك يتعجل معرفة الحكم وحيثياته. والواقع أن كل الكائنات الحيوانية نفوس. والله قد اختار لكل نفس القالب المادي الذي تستحقه.

والله قد خلق الخنزير خنزيرا لأنه خنزير. اختار للنفس الخنزيرية قالبا ماديا خنزيريا... ونحن لا نعلم شيئا عن تلك النفس الخنزيرية قبل أن يودعها الله في قالبها الخنزيري.. ولا نعلم لماذا وكيف كان الميلاد على تلك الصورة.

وما قبل الميلاد محجوب.

كما أن ما بعد الموت محجوب. ولكن أهل المشاهدة يقولون كما يقول القرآن إننا كنا قبل الميلاد في عالم (يسمونه عالم الذر) ونكون بعد الموت في عالم آخر.. والحياة أبدية ولا موت وإنما انتقال وارتقاء في معراج لا ينتهي. صعودا وتطورا وتساميا وكدحا إلى الله. وهذا الاستمرار يقول به العقل أيضا. والعدل وهو الحقيقة الأزلية التي وقرها الله في الفطرة وفي الحشوة الأدمية.. وحتى الحشوة الحيوانية كما قدمت في بداية مقالي. هذا العدل حقيقة مطلقة سوف تقول لنا إن جميع القوالب المادية والحيوانية هي استحقاقات مؤكدة لا ندري شيئا

عن تفاصيلها ولا كيف كانت ولكننا نستطيع أن نقول بداهة إنها استحقاقات.. وإن الله خلق الخنزير خنزيرا لأن نفسه كانت نفسا خنزيرية فكان هذا ثوبها وقالبها الملائم. أما بعث الحيوانات فالقرآن بقول به (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون)

(الأنعام 38)

هي أمم من الأنفس يقول لنا القرآن إنها تحشر كما تحشر.. أما ما يجري عليها بعد ذلك وأين تكون وما مصيرها.. فهو غيب.. وتطلع إلى محجوبات وفضول لن نجد له جوابا شافيا. والعلم بكل شيء في داخل اللحظة المحدودة وفي عمرنا الدنيوي هو طمع في مستحيل. ولكن إذا كان نصيبنا من العلم وإذا كان ما غنمناه بالتأمل هو أن العدل حقيقة أزلية وأن الله وقرها وأودعها في القطرة فقد علمناه الكثير وأدركنا كفايتنا.

وبالصورة التي أدركنا بها الله في مقالنا الأول على أنه العقل الكلي المحيط وأنه القادر المبدع الملهم المعتني بمخلوقاته، بهذه الصورة سوف نفهم كيف أودع الله هذه الفطرة الهادية المرشدة في مخلوقاته، فهذا مقتضى عنايته وعدله.. أن يخلق مخلوقاته ويخلق لها النور الذي تهتدي به. وسوف نصدق أيضا أن الله أرسل الأنبياء وأوحى بالكتب... فإن الله لا يكون ربا ولا إلها ملهما مدبرا بغير ذلك. وسوف يكون دليلنا على صدق

الكتب السماوية هو ما تأتينا به من علم و غيب وحكمة وتشريع وحق مما لا يأتي لجهد فردي أن يهتدي إليه بالمحاولة الشخصية. إن الله الخالق العادل الملهم الذي خلق مخلوقاته وألهمها الطريق.. (وهو لباب الأديان كلها).. هو مبدأ أولي يصل إليه العقل دون إجهاد. وتوحي به الفطرة بداهة. وإنما الافتعال كل الافتعال.. هو القول بغير ذلك. والإنكار يحتاج إلى الجهد كل الجهد وإلى الالتفاف والدوران واللجاجة والجدل العقيم ثم نهايته إلى التهافت.. لأنه لا يقوم على أساس.. ولأنه يدخل في باب المكابرة والعناد أكثر مما يدخل في باب التأمل المحايد النزيه والفطرة السوية. وهذا ما قالته لي رحلتي الفكرية الطويلة.. من بدايتها المزهوة في كتاب (الله والإنسان) إلى وقفتها الخاشعة على أبواب القرآن والتوراة والإنجيل. وليس متدينا في نظري من تعصب وتحزب وتصور نبيه هو النبي الوحيد وإن الله لم يأت بغيره.. فإن هذا التصور الله هو تصور طفولي متخلف يظن أن إله أشبه بشيخ القبيلة.. ومثل هذا الإحساس هو عنصرية وليس تدينا. وإنما التصور الحق لله.. أنه الكريم الذي يعطي الكل وبرسل الرسل للكل (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)

(فاطر 24)

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا)

(النحل 36)

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا)

(القصص 59)

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك)

(النساء 164)

ومعنى هذه الآية أن بوذا يمكن أن يكون رسولا في عصره وإن لم يرد ذكره في القرآن. وأخناتون يمكن أن يكون رسولا في زمانه.. ويمكن أن يكون ما وصلنا من تعاليمهم قد خضع للتحريف.. والله يريد بهذا الوحي أن يوحي بالإيمان المنفتح الذي يحتضن كل الرسالات وكل الأنبياء وكل الكتب بلا تصب ولا تحيز. ولهذا يأمرنا بالإسلام دينا لأنه الدين الوحيد الذي يعترف بكل الرسالات وبكل الأنبياء وبكل الكتب وبختمها حكمة وتشريعا، ويردها إلى نبعها وأصلها، الإله الواحد الرحيم الملهم، الذي أرسل الهداة جميعا من آدم إلى الخاتم. وأصدق مثل للوعي الديني المنفتح هو وعي رجل مثل غاندي.. هندوسي ومع ذلك يقرأ في صلاته فقرات من القرآن والتوراة والإنجيل وكتاب (الداما بادا) لبوذا.. في خضوع ومحبة.. مؤمنا بكل الكتب وكل الرسل.. وبالخالق الواحد الذي أرسلها. وهو رجل في حياته مثل كلامه. أنفقها في الحب والسلام.

والدين واحد من الناحية العقادية وإن اختلفت الشرائع في الأديان المتعددة. كما أن الرب واحد. والفضلاء من جميع الأديان هم على دين واحد. لأن المتدين الفاضل لا يتصور الله خالقا له وحده وهاديا له وحده أو لفئة وحدها.. وإنما هو نور السنوات والأرض.. المتاح لكل من يجهد باحثا عنه.. الرحمن الرحيم المرسل للهداة المنزل للوحي في جميع الأعصر و الدهور.. وهذا مقتضى عدله الأزلي.. وهذا هو المعنى الجدير بالمقام الإلهي.. وبدون هذا الإيمان المنفتح لا يكون المتدين متدينا. أما الأديان التي تنقسم شيعا يحارب بعضها بعضا باسم الدين. فإنها ترفع راية الدين كذبا.. وما الراية المرفوعة إلا راية العنصر والعرق والجنس.. وهي مازالت في جاهلية الأوس والخزرج وحماسيات عنترة.. تحارب للغرور.. وإن ظنت أنها تحارب الله.. وهي هالكة، الغالب فيها والمغلوب مشركة.. كل منها عابد لتمثاله ولنفسه ولتصوره الشخصي وليس عابدا لله وإنما تبدأ عبادة الله بمعرفة الله ومقامه الأسمى. وتبدأ معرفة الله بمعرفة النفس ومكانها الأدنى. وهذا هو الطريق.. والصراط.. والمعراج الذي بدأ منه عروج (...) في هجرتهم الكبرى إلى الحق.

لماذا العذاب؟

المثقفون لهم اعتراض تقليدي على مسألة البعث والعقاب، فهم يقولون: كيف يعذبنا الله والله محبة؟ وينسى الواحد منهم أنه قد يحب ابنه كل الحب ومع ذلك يعاقبه بالضرب والحرمان من المصروف والتأديب والتعنيف.. وكلما ازداد حبه لابنه كلما ازداد اهتمامه بتأديبه.. ولو أنه تهاون في تربيته لا تهمه الناس في حبه لابنه وقالوا عنه إنه أب مهمل لا يرعى أبناءه الرعاية الكافية.. فما بال الرب وهو المربي الأعظم.. وكلمة الرب مشتقة من التربية. والواقع أن عبارة "الله محبة" عبارة فضفاضة يسيء الكثيرون فهمها ويحملونها معنى مطلقا.. ويتصورون أن الله محبة على الإطلاق.. وهذا غير صحيح. فهل الله يحب الظلم مثلا؟

مستحيل..

مستحيل أن يحب الله الظلم والظالمين.. وأن يستوي في نظره ظالم ومظلوم.. وهذا التصور للقوة الإلهية.. هو فوضى فكرية.. ويلزم فعلا أن يكون الله العلو المطلق على كل الظالمين، وأن يكون جبارا مطلقا يملك الجبروت على كل الجبارين.. وأن يكون متكبرا على المتكبرين مذلا للمذلين قويا على جميع الأقوياء.. وأن يكون الحكم العدل الذي يضع كل إنسان في رتبته ومقامه. وبمقتضى ما نرى حولنا من انضباط القوانين في

المادة والفضاء والسماوات يكون استنتاجنا للعدل الإلهي استنتاجا سليما يعطي الصفة لموصوفها.. وكل البينات تحت أيدينا تقوم لتؤكد صفة العدل الإلهي والنظام والحكمة والتدبير.

والذين يفكرون النظام والعدل هم الذين يحتاجون إلى إقامة البرهان والى تقديم الدليل على إنكارهم.. وليس الذين يؤمنون بالنظام.

أما الذين ينكرون العذاب على إطلاقه وينكرون أن الإنسان مربوب تعلو عليه قوة أعلى نته وقوانين أعلى منه ندعوهم إلى نظرة في أحوال عالمهم الأرضي.. نظرة في الدنيا دون حاجة إلى افتراض آخره. ولا أحد لم يجرب الم الضرس الذي يخرق الدماغ وبشق الرأس كالمنشار. والمغص الكلوي والصداع الشقي وألم الغضروف وسل العظام وهي ألوان من الجحيم يعرفها من ألقى به سوء حظه إلى تجربتها. وزيارة لعنبر المحروقين في القصر العيني سوف تقنع المشاهد بأن هناك فارقا كبيرا بين رجل محروق مشوه يصرخ في الضمادات، وبين حال رجل يرشف فنجان شاي في استرخاء ولذة على شاطئ النيل وإلى جواره حسناء تلاطفه. إن العذاب حقيقة ملموسة. والإنسان مربوب بقوة أعلى منه وهو عديم الحيلة في قبضة تلك القوة. ويستوي الأمر أن يسمي المؤمن هذه القوة.. (الله) وأن يسميها الملحد (الطبيعة) أو (القوانين الطبيعية) أو (قانون القوانين) فما هذه إلا سفسطة لفظية.. المهم أنه لم يجد بدا من

الاعتراف بأن هناك قوة تعلو على الإنسان وعلى الحوادث.. وأن هذه القوة تعذب وتنكل. وأصحاب المشاعر الرقيقة الذين يتأففون من تصور الله جبارا معذبا علينا أن نذكرهم بما كان يفعله الخليفة التركي حينما يصدر حكم الإعدام بالخازوق على أعدائه.. وما كان يفعله الجلاد المنوط به تنفيذ الحكم حينما كان يلقى بالضحية على بطنه ثم يدخل في الشرج خازوقا ذا رأس حديدية مدببة بظل يدق ببطء حتى تتهتك جميع الأحشاء ويخرج الخازوق من الرقبة.. وكيف أنه كان من واجب الجلاد أن يحتفظ بضحيته حيا حتى يخرج الخازوق من رقبته ليشعر بجميع الآلام الضرورية. وأفظع من ذلك أن تفقأ عيون الأسرى بالأسياخ المحمية في النار. مثل هؤلاء الجبارين هل من المفروض أن يقدم لهم الله حفلة شاي لأن الله محبة؟

بل إن جهنم هي منتهى المحبة ما دامت لا توجد وسيلة غيرها التعريف هؤلاء بأن هناك إلها عادلا. وهي رحمة من حيث كونها تعريفا وتعليما لمن رفض أن يتعلم من جميع الكتب والرسل، وللذين كذبوا حتى أوليات العقل وبداهات الإنسانية.

أيكون عدلا أن يقتل هتلر عشرين مليونا في حرب عالمية.. يسلخ فيها عماله الأسرى ويعدمون الألوف منهم في غرف الغاز ويحرقونهم في المحارق.. ثم عند الهزيمة ينتحر هتلر هاربا وفارا من مواجهة نتيجة أعماله. إن العبث وحده وأن يكون العالم عبثا في عبث

هو الذي يمكن أن ينجي هذا القاتل الشامل من ذنبه. ولا شيء حولنا في هذا العالم المنضبط الجميل يدل على العبث.. وكل شيء من أكبر النجوم إلى أدق الذرات ينطق بالنظام والضبط والأحكام. ولا يكون الله محبة.. ولا يكون عادلا.. إلا إذا وضع هذا الرجل في هاوية أعماله.

عن العاقل الفطن المتأمل لن يحتاج إلى فلسفة ليدرك حقيقة العذاب فإنه سوف يكتشف نذر هذا العذاب في نفسه داخل ضميره.. وفي عيون المذنبين ونظرات القتلة.. وفي دموع المظلومين وآلام المكلومين وفي ذل الأسرى وجبروت المتنصرين وفي حشرجة المحتضرين. وهو سوف يدرك العذاب والحساب حينما يحتويه الندم. والندم هو صوت الفطرة لحظة الخطأ. وهو القيامة الصغرى والجحيم الأصغر وهو نموذج من الدينونة. وهو إشارة الخطر التي تضيء في داخل النفس لتدل على أن هناك ميزانا للأعمال.. وأن هناك حقا وباطلا.. ومن كان على الحق فهو على صراط وقلبه مطمئن.. ومن كان على باطل فهو في هاوية الندم وقلبه كليم. وعذاب الدنيا دائما نوع من التقويم.. وكذلك على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمم.. فهزيمة 67 في سيناء كانت درسا، كما أن رسوب الطالب يكون درسا - كما أن الآم المرض واعتلال الصحة هي لمن عاش، حياة الإسراف والترف والرخاوة والمتعة درس.

والعذاب يجلو صدأ النفس ويصقل معدنها.

ولا نعرف نبيا أو مصلحا أو فنانا أو عبقريا إلا وقد ذاق أشد العذاب مرضا أو فقرا أو اضطهادا.

والعذاب من هذه الزاوية محبة.. وهو الضريبة التي يلزم دفعها للانتقال الى درجة أعلى.

وإذا خفيت عنا الحكمة في العذاب أحيانا فلأننا لا ندرك كل شيء ولا نعرف كل شيء من القصة إلا تلك الرحلة المحدودة بين قوسين التي اسمها الدنيا.. أما ما قبل ذلك وما بعد ذلك فهو بالنسبة لنا غيب محجوب ولذا يجب أن نصمت في احترام ولا نطلق الأحكام.

أما كيفيات لعذاب بعد البعث فلا يمكن القطع فيها تفصيلا لأن الآخرة كلها غيب.. ويمكن أن يكون ما ورد في الكتب المقدسة بهذا الشأن رموزا وإشارات.. كما نقول للصبي الذي لم يدرك البلوغ حينما يسألنا عن اللذة الجنسية انها مثل السكر أو العسل لأننا لا نجد في قاموس خبراته شيئا غير ذلك.. ولأن تلك اللذة بالنسبة له غيب لا يمكن وصفه بكلمات من محصوله اللغوي فهي خبرة لم يجربها إطلاقا، وبالمثل الجنة والجحيم هي خبرات بالنسبة لنا غيب ولا يمكن وصفها بكلمات من قاموسنا الدنيوي.. وكل ما يمكن هو إيراد أوصاف على سبيل التقريب مثل النار أو الحدائق الغناء التي تجري من تحتها الأنهار.. أما ما سوف يحدث فهو شيء يفوق بكثير كل هذه الأوصاف التقريبية مما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر.

ويمكن أن يقال دون خطأ إن جهنم هي المقام الأسفل بكل ما يستتبع ذلك المقام من عذاب حسي ومعنوي.. وأن الجنة هي المقام الأعلى بكل ما يستتبع ذلك المقام من نعيم حسي ومعنوي.

والصوفية يقولون إن جهنم هي مقام البعد (البعد عن الله) والحجب عن الله.. والجنة هي مقام القرب بكل ما يتبع ذلك القرب من سعادة لا يمكن وصفها.

(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا). والعمى هنا هو عمى البصيرة.

إنها إذن بما نرى من درجات ومقامات وتفاوت بين أعمى وبصير. ومهتد وضال. ولكن في الاخرة سوف يكون التفاوت عظيما.

(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

(الإسراء 21)

لدرجة أن من سيكون في المقام الأسفل سيكون حاله حال من في النار وأسوأ.. إنه قانون التفاضل الذي يحكم الوجود كله دنيا وآخره ملكا وملكوتا غيبا وشهودا.

لكل واحد رتبة واستحقاق ومقام ودرجة.. ولا يستوي اثنان.

ولا يكون الانتقال من درجة إلى درجة إلا مقابل جهد وعمل واختبار وابتلاء.. ومن كان في الدنيا في أحط الدرجات من عمى البصيرة فسيكون حاله في الآخرة في أحط الدرجات أيضا.

وهذا عين العدل.. أن يوضع كل إنسان في مكانه ودرجته واستحقاقه.. وهذا ما يحدث في الدنيا ظلما وهو ما سوف يحدث في الآخرة عدلا.

والعذاب بهذا المعنى عدل.

والثواب عدل.

وكلاهما من مقتضيات الضرورة.

أن يكون الحديد الصلب غاية في الصلابة فيصنع منه الموتور.

ويكون الكاوتشوك رخوا فتصنع منه العجلات.

ويكون القش رخيصا فتصنع منه رأس المكنسة.

وأن يكون القطن الفاخر لصناعة الوسائد.. والقطن الرديء لتسليك البالوعات.

وهذه بداهات وأوليات تقول بها الفطرة والمنطق السوي ولا تحتاج الى تدبيج مقالات في الفلسفة ولا الى رص حيثيات ومسببات.

ولهذا كانت الأديان كلها مقولة فطرية.. لا تحتمل الجدل ولا تحتمل التكذيب.. ولهذا كانت حقيقة مطلقة تقبلها العقول السوية التي لم تفسدها لفلفات الفلسفة والسفسطة.. والتي احتفظت ببكارتها ونقاوتها وبرئت من داء العناد والمكابرة.

ولهذا يقول الصوفي إن الله لا يحتاج الى دليل بل إن الله هو الدليل الذي يستدل به على كل شيء.

هو الثابت الذي نعرف المتغيرات.

وهو الجوهر الذي ندرك به اختلاف الظواهر.

وهو البرهان الذي ندرك به حكمة العالم الزائل.

أما العقل الذي يطلب برهانا على وجود الله فهو عقل فقد التعقل.

فالنور يكشف لنا الأشياء ويدلنا عليها.

ولا يمكن أن تكون الأشياء هي دليلنا على النور وإلا نكون قد قلبنا الأوضاع.. كمن يسير في ضوء النهار ثم يقول.. أين دليلك على أن الدنيا نهار.. أثبت لي بالبرهان.

ومن فقد سلامة الفطرة وبكارة القلب.. ولم يبق له إلا الجدل وتلافيف المنطق وعلوم الكلام.. فقد فقد كل شيء وسوف يطول به المطاف.. ولن يصل أبدا.

ومثل الذي يحتج على العذاب الدنيوي ويتبرم ويتسخط ويلعن الحياة ويقول إنها حياة لا تحتمل وأنه يرفضها

وإن أحدا لم يأخذ رأيه قبل أن يولد وإنه خلق قهرا وحكم عليه بالعذاب جبرا وإن هذا ظلم فادح.

مثل هذا الرفض الساخط مثل الفنان الذي يؤدي دورا في مسرحية.. ويقتضي الدور أن يتلقى الضرب والركل كل يوم أما المتفرجين.

لو أن هذا الممثل فقد الذاكرة ولم ير شريط حياته إلا أمام هذا الدور الذي يؤديه بين قوسين على خشبة المسرح كل يوم.. فإنه سوف يحتج.. رافضا أن يتلقى العذاب.. ويقول إن أحدا لم يأخذ رأيه وإنه خلق قهرا وحكم عليه بالعذاب جبرا وقضى عليه بالهانة أمام الناس بدون مبرر معقول وبدون اختيار منذ البداية.

وسوف ينسى هذا الممثل أنه كان هناك اتفاق منذ بدء الرواية.. وكان هناك تكليف من المخرج ثم قبول للتكليف من جانب الممثل.. ثم عهد وميثاق على تنفيذ المطلوب.. كل هذا تم في حرية قبل أن يبدأ العرض.. وارتضى الممثل دوره اختيارا.. بل إنه أحب دوره وسعى إليه.

ولكن الممثل قد نسي تماما هذه الحقبة الزمنية قبل الوقوف على خشبة المسرح.. ومن هنا تحولت حياته بما فيها من تكاليف وآلام على علامة استفهام ولغز غير مفهوم.

وهذا شأن الإنسان الذي تصور أن كل حياته هي وجوده بالجسد في هذه اللحظات الدنيوية وأنه هالك ومصيره التراب. وأنه ليس له وجود غير هذا الوجود الثلاثي الأبعاد على خشبة الحياة الدنيا.

نسي هذا الإنسان أنه كان روحا في الملكوت وانه جاء على الدنيا بتكليف وأنه قبل هذا التكليف وارتضاه.. وانه كانت بينه وبين خالقه (المخرج الأعظم لدراما الوجود) عهود ومواثيق.. وأنه بعد دراما الوجود الدنيوي يكون البعث والحساب كما أنه بعد المسرحية يكون النقد من النقاد والنجاح والفشل من الجمهور والسقوط في عين النظارة أو الارتفاق في نظرهم.

إنه النسيان والغفلة.

والنظرة الضيقة المحدودة التي تتصور أن الدنيا كل شيء.. هي التي تؤدي على ضلال الفكر.. وهي التي تؤدي إلى الحيرة أمام العذاب والشر الألم..

ومن هنا جاءت تسمية القرآن بأنه.. ذكر.. وتذكير.. وتذكرة.. ليتذكر أولو الألباب.

والنبي هو مذكر.

(فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر)

(الغاشية 22-21)

الدنيا كلها ليست كل القصة.

إنها فصل في الرواية.. كان لها بدء قبل الميلاد وسيكون لها استمرار بعد الموت.

وفي داخل هذه الرؤية الشاملة يصبح للعذاب معنى...

يصبح عذاب الدنيا رحمة من الرحيم الذي ينبهنا به حتى لا نغفل.. إنه محاولة إيقاظ لتتوتر الحواس ويتساءل العقل.. وهو تذكير دائم بأن الدنيا لن تكون ولا يمكن أن تكون جنة.. وإنها مجرد مرحلة.. وعن الإخلاد إلى ذاتها يؤدي بصاحبه إلى غفلة مهلكة.

إنه العقاب الذي ظاهره العذاب وباطنه الرحمة.

وأما عذاب الآخرة فهو الصحو على الحقيقة وعلى العدل المطلق الذي لا تفوته ذرة الخير ولا ذرة الشر وهو اليقين بنظام المنظم الذي أبدع كل شيء صنعا.

(واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

واليقين هنا هو الموت وما وراءه.

ماذا قالت لي الخلوة

هل أنت صادق؟

سؤال سوف يجيب عليه الكل بنعم.. فكل واحد يتصور أنه صادق وأنه لا يكذب.. وقد يعترف أحدهم بكذبة أو بكذبتين ويعتبر نفسه بلغ الغاية من الدقة والصراحة مع النفس وانه أدلى بحقيقة لا تقبل مراجعة.

ومع ذلك فدعونا نراجع معا هذا الادعاء العريض وسوف نكتشف أن الصدق شيء نادر جدا.. وأن الصادق الحقيقي يكاد يكون غير موجود.

وأكثرنا في الواقع مغشوش في نفسه حينما يتصور انه من أهل الصدق. بل إننا نبدأ في الكذب من لحظة أن نتيقظ في الصباح وقبل أن نفتح فمنا بكلمة.

أحيانا تكون مجرد تسريحة الشعر التي نختارها كذبة.

الكهل الذي يسرح شعره خنافس ليبدو أصغر من سنه كذب، والمرأة العجوز التي تصبغ شعرها لتبدو أصغر من سنها تكذب.

والباروكة على رأس الأصلع كذبة.

وطقم الأسنان في فم الأهتم كذبة.

والبدلة السبور التي تخفي تحتها فانلة صوف كذبة.

والكورسيه والمشدات حول البطن المترهلة كذبة.

والنهد الكاوتشوك على الصدر المنهك من الرضاعة كذبة.

والمكياج الذي يحاول صاحبه ان يخفى به التجاعيد هو نوع آخر من الكذب الصامت.

والبودرة والأحمر والكحل والريميل والرموش الصناعية.. كلها أكاذيب ينطق بها لسان الحال قبل أن يفتح الواحد منا فمه ويتكلم.

بل إن مجرد ضفيرة المدارس على رأس بنت الثلاثين كذبة.

واللبانة في فم رجل كهل هي كذبة أكثر وقاحة.

كل هذا ولم يبدأ اللسان ينطق ولم يفتح الفم بعد.

فإذا فتح الواحد منا فمه وقال صباح الخير.. فانه يقولها على سبيل العرف والعادة.. لم ينوي له الخير ولم ينوي له الشر.. فهو يكذب.. وهو يقرأ السلام على من يبيت له العدوان.. فهو يكذب.

فإذا رفع سماعة التلفون مضى يطلب ما لا يريد من الأشياء لمجرد أنها مظاهر ومجاملات.. فهو يكذب.. وقد يرفض ما يريد خجلا وادعاء.. فهو يكذب.

والولد والبنت يتكلمان طوال ساعتين في كل شيء الا ما يتحرقان شوقا إلى أن يتصارحا به.. فهما يكذبان.

وفتاة البار تبدؤك الحديث بالحب وهو لا يخطر لها على بال ولا تشغلها سوى حافظة نقودك. وكم زجاجة من الشمبانيا ستفتح لها.

والإعلان الذي يصف لك نكهة السيجارة وفوائدها الصحية يكذب عليك.

والإعلان الذي يقول لك إن قرص الأسبيرين يشفي من الإنفلونزا كذب حتى بالقياس إلى علم الأدوية ذاته.

وكل ما يدور في عالم البيع والشراء يبدأ بالكذب.

وصورة لاعب التنس في يده زجاجة ويسمي وصورة الأسد الذي يحتضن زجاجة الكينا.. وبطل الجري الذي يدخن سيجارة فرجينيا كلها صنوف من الأكاذيب الظريفة التي تراها ملصقة على الجدران وعلى أغلفة الصحف وفي إعلانات السينما والتلفزيون وكأنما أصبح الكذب عرفا تجاريا لا لوم عليه.

وفي عالم السياسة والسياسيين وفي أروقة الأمم المتحدة وعلى أفواه الدبلوماسيين نجد أن الكذب هو القاعدة.

بل إن فن الدبلوماسية الرفيع هو كيف تستطيع أن تجعل الكذب يبدو كالصدق.. وكيف تقول ما لا تعني.. وكيف تخفي ما تريد.. وكيف تحب ما تكره.. وكيف تكره ما تحب.

وأذكر بهذه المناسبة النكتة التي رويت عن تشرشل حينما رأى شاهدة مقبة مكتوبا عليها..

(هنا يرقد الرجل الصادق والسياسي العظيم)

فقال ضاحكا:

هذه أول مره أرى فيها رجلين يدفنان في تابوت واحد.

فلم يكن من الممكن إطلاقا في نظر تشرشل أن يكون الرجل الصادق والسياسي العظيم رجلا واحدا.. إذ أن أول مؤهلات العظمة السياسية في نظر تشرشل هو الكذب.

وشرط السياسة هو أن تخفي الحقيقة لحساب المصلحة.. وتتأخر العاطفة لتتقدم الحيلة.. والفطنة.. والذكاء.. والمراوغة.

والدبلوماسي الذي يجاهر بعاطفته هو دبلوماسي أبله.. بل إنه لا يكون دبلوماسيا على الإطلاق.

وفي عالم الدين ودنيا العبادات يطل الكذب الخفي من وراء الطقوس والمراسيم.

شهر الصيام الذي هو امتناع عن الأكل يتحول الى شهر أكل فتظهر المشهيات والحلويات والمخللات والمتبلات.. من كنافة إلى مشمشية إلى قطايف إلى مكسرات ويرتفع استهلاك اللحم في شهر رمضان فتقول

لنا الإحصائيات بالأرقام إنه يصل إلى الضعف ويصبح شهر رمضان هو شهر الصواني والطواجن.

وبين كل مائة مصل أكثر من تسعين يقفون بين يدي الله وهم شاردون مشغولون بمصالحهم الدنيوية يعبدون مصالحهم وأغراضهم ويركعون الركعة لتقضى لهم هذه المصالح والأغراض.

وقد عاش بابوات القرون الوسطى في ترف الملوك والسلاطين وسبحوا في الذهب والحرير والسلطة والنفوذ. وامتلكوا الإقطاعيات والقصور باسم الدين وباسم الانجيل الذي يقول إن الغني لن يدخل ملكوت الله إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة.

بنهم تصوروا أنهم امتلكوا الجنة فباعوها صكوكا لطالبي الغفران.

وفي دولة الحب نجد أن مخادعة النفس هي الأسلوب المتعارف عليه..

يخدع كل واحد نفسه ويخدع الآخر أحيانا بوعي وأحيانا بدون وعي..

فيتحدث العاشقان عن الحب وهما يريدان أن يقدما مبررا شريفا مقبولا للوصول إلى الفراش.. ويخيل للحبيب أنه قد جن حبا وهو في الواقع يلتمس لنفسه وسيلة للهرب من واقع مرير.

كنوع من إظهار البراعة والمهارة أو كمظهر من مظاهر النجاح.

وأحيانا تكون كلمة الحب كذبة معسولة تخفي وراءها رغبة شريرة في الامتلاك والاستحواذ والسيطرة.

وأحيانا تكون كلمة الحب خطة محبوكة وشركا للوصول الى ميراث.

وهي في أكثر صورها شيوعا وسيلة للوصول إلى لذة سريعة وطريقة لتدليك الضمير والتغلب على الخجل ورفع الكلفة.

وهي ذريعتنا الدائمة للتغلب على عقدة الذنب فتخلع المرأة آخر قطعة من ثياب وهي تطمئن نفسها بأنها ضحية الحب.. وأن الحب إحساس طاهر وانه أمر الله وأنه قضاء وقدر.. وأنها ليست أول من أحبت ولا آخر من أعطت.

ولا توجد شبكة حريرة من الأكاذيب كما توجد في الحب.. ففي كل كلمة كذبة.. وفي كل لمسة كذبة.. والغريزة الجنسية ذاتها تكذب فما أسرع ما تشتعل وأسرع ما تنطفئ. وما أسرع ما تضجر وتمل وتطالب بتغيير الطعام.

والصدق في الحب وقصص الحب نادر أندر من الماس في الصحاري.. وهو من أخلاق الصديقين وليس من أخلاق الغمر العادي من الناس.

وتتواطأ أغاني الحب وقصص الحب وتتآمر هي الأخرى لتنصب شراكا من الأكاذيب المنمقة الجميلة وترسي دعامات ساحرة من الأوهام والأحلام الوردية والصور البراقة الخادعة عن القبلة والضمة ولقاء الفراش ولذة العذاب وعذاب اللذة ولسعة الحرمان ودموع الوسادة وإغماء السعادة وصحوة الفراق.. وضباب وضباب.. وعطور وصور خلابة مرسومة بريشة فنانين كذابين عظام.

والكذب في الفن عادة قديمة بدأها الشعراء من زمن طويل.

وقصائد المديح وقصائد الهجاء في شعرنا العربي شاهد على انتشار هذه العادة السيئة.

والفن وليد الهوى والخاطر والمزاج.. والمزاج متقلب.

ما أكثر الكذب حقا !

إننا لنكذب حتى في الأكل فنأكل حتى ونحن شبعانون.

أين الصدق إذن؟

ومتى تأتي هذه اللحظة الشحيحة التي نتحرى فيها الحق والحق وحده؟

إنها تأتي على ندرة.

في معمل العالم الذي يضع عينه على ميكروسكوب بحثا عم حقيقة.

هنا نجد العقل يتطلع في شوق حقيقي وصادق ويبحث في حياد مطلق.. ويفكر في موضوعية على هدى أرقام دقيقة ومقادير وقوانين.

والعلم بذاته هو النظرة الموضوعية المستقلة عن الهوى والمزاج وأداته الوحيدة.. صدق الاستقراء.. وصدق الفراسة.

واللحظة الأخرى الصادقة هي لحظة الخلوة مع النفس حينما يبدأ ذلك الحديث السري.. ذلك الحوار الداخلي.

تلك المكالمة الانفرادية حيث يصغي الواحد إلى نفسه دون أن يخشى أذنا أخرى تتلصص على الخط.

ذلك الإفضاء والإفشاء والاعتراف والطرح الصريح من الأعماق إلى سطح الوعي في محاولة مخلصة للفهم.

وهي لحظة من أثمن اللحظات.

إن الحياة تتوقف في تلك اللحظة لتبوح بحكمتها.

والزمن يتوقف ليعطي ذلك الشعور المديد بالحضور.. حيث نحن في حضرة الحق.. وحيث لا يجوز الكذب والخداع والتزييف.. كما لا يجوز لحظة الموت ولحظة الحشرجة.

إننا نكتشف ساعتها أننا عشنا عمرنا من أجل هذه اللحظة.. وأننا تألمنا وتعذبنا من أجل أن نصل إلى هذه المعرفة الثمينة عن نفوسنا.

وقد تأتي تلك اللحظة في العمر مرة فتكون قيمتها بالعمر كله.

أما إذا تأخرت ولم تأت إلا ساعة الموت.. فقد ضاع العمر دون معنى ودون حكم.. وأكلته الأكاذيب.. وجاءت الصحوة بعد فوات الأوان.

ولهذا كانت الخلوة مع النفس شيئا ضروريا ومقدسا بالنسبة لإنسان العصر الضائع في متاهات الكذب والتزييف.. وهي بالنسبة له طوق النجاة وقارب الإنقاذ.

والإنسان يولد وحده ويموت وحده ويصل إلى الحق وحده.

وليست مبالغة أن توصف الدنيا.. بأنها باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح..

فكل ما حولنا من مظاهر الدنيا يتصف بالبطلان والزيف.

ونحن نقتل بعضنا بعضا في سبيل الغرور وإرضاء لكبرياء كاذب.

والدنيا ملهاة قبل أن تكون مأساة.

ومع ذلك نحن نتحرق شوقا في سبيل الحق ونموت سعداء في سبيله.

والشعور بالحق يملؤنا تماما وإن كنا نعجز عن الوصول إليه.

إننا نشعر به ملء القلب وإن كنا لا نراه حولنا.

وهذا الشعور الطاغي هو شهادة بوجوده.

إننا وإن لم نر الحق وإن لم نصل إليه وإن لم نبلغه فهو فينا وهو يحفزنا وهو مثال مطلق لا يغيب عن ضميرنا لحظة وبصائرنا مفتوحة عليه دوما.

ولحظة التأمل الصافي تقودنا إليه.

والعلم يقودنا إليه.

ومراقبتنا لأنفسنا من الداخل تقودنا إليه.

وبصائرنا تهدى إليه.

والحق في القرآن هو االله.. وهو أحد أسمائه الحسنى.

وكل هذه المؤثرات الداخلية تدل عليه.

وهو متجاوز للدنيا متعال عليها.

نراه رؤية بصيرة لا رؤية بصر.

وتبرهن عليه أرواحنا بكل شوقها وبكل نزوعها.

والعجب كل العجب لمن يسألنا عن برهان على وجود الله.. على وجود الحق.. وهو نازع إليه بكليته مشغوف به بجماع قلبه.

وكيف يكون موضع شك من قلبه كل القلوب ومهوى جميع الأفئدة وهدف جميع البصائر؟

كيف نشك في وجوده وهو مستول على كل مشاعرنا؟

كيف نشك في الحق ونطلب عليه دليلا من الباطل؟

كيف ننزلق مع المنطق المراوغ إلى هذه الدرجة من التناقض فنجعل من لب الوجود وحقيقة حقائقه محل سؤال؟

إني لا أجد نصيحة أثمن من أن أقول ليعد كل منا إلى فطرته.. ليعد إلى بكارته وعذريته التي لم تدنسها لفلفات المنطق ومراوغات العقل.

ليعد كل منا إلى قلبه في ساعة خلوة.

وليسأل قلبه.

وسوف يدل قلبه على كل شيء.

فقد أودع الله في قلوبنا تلك البوصلة التي لا تخطئ.. والتي اسمها الفطرة والبداهة.

وهي فطرة لا تقبل التبديل ولا التشويه لأنها محور الوجود ولبه ومداره وعليها تقوم كل المعارف والعلوم.

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله(

(الروم 30)

لقد جعل الله هذه الفطرة نازعة إليه بطبيعتها تطلبه دواما كما تطلب البوصلة أقطابها مشيرة إليه دالة عليه.

فليكن كل منا كما تملي عليه طبيعته لا أكثر.

وسوف تدله طبيعته على الحق.

وسوف تهديه فطرته إلى الله بدون جهد.

كن كما أنت.

وسوف تهديك نفسك إلى الصراط.

التوازن العظيم

لا أنسى تلك الليلة منذ سنوات وأنا في رحلتي في أدغال أفريقيا الاستوائية أشق النيل العريض في سفينة نيلية وقد تجاوزنا الملكال ودخلنا منطقة يكثر فيها البعوض وينبسط فيها النيل على شكل مستنقعات على مدى البصر.

والسفينة تتهادى على سطح الماء في جو لزج شديد الرطوبة ويقع مريضا بالملاريا كل من على السفينة حتى الربان.. وأنا أبتلع أقراص الكاموكين بانتظام خوفا من الإصابة بالحمى.

وذات ليلة خطر لي أن أصعد على سطح السفينة لأشاهد أفريقيا الاستوائية في الليل.

ودهنت وجهي وذراعي بطارد البعوض وتسللت إلى السطح وكان ما رأيته شيئا كالحلم.

كانت آلاف الأشجار تضيء وتنطفئ وأكنها أشجار الميلاد يلهو بها الأطفال وقد غطوها بآلاف القناديل الكهربائية الصغيرة يضيئونها ويطفئونها معا.

ومسحت على عيني من الدهشة.. وعدت أنظر.

كان ما أرى حقيقة لا خيالا.

كانت الأشجار تومض بالفعل كأنها مغطاة بآلاف الكهارب ثم تنطفئ.

وأخبرتني أن ما رأيت في تلك الليلة كان هو الحقيقة بعينها.. وأن تلك الأشجار تغطيها آلاف من حشرات الحباحب المضيئة وأنها تضيء معا لتجذب البعوض بضوئها ثم تأكله وتعود فتنطفئ من جديد.. وأن هذه سنة الطبيعة كلما تكاثرت فيها حشرة اصطنع لها االله حشرة مضادة تأكلها ليحفظ للمخلوقات توازنها فلا يطغى واحد على الآخر إلا بحساب.

وظللت أذكر تلك الليلة.

وظللت أذكر ذلك الحديث.

وكل يوم يجتمع لدي المزيد من الأدلة بأن الكون هو بالفعل مسرح للتوازن العظيم في كل شيء.. وأن كل شيء قد قدر فيه تقديرا دقيقا.

لو كانت الكرة الأرضية أصغر حجما مما هي لضغطت جاذبيتها ولأفلت الهواء من جوها وتبعثر في الفضاء ولتبخر الماء وتبدد ولأصبحت جرداء مثل القمر لا ماء ولا هواء ولا جو ولاستحالت الحياة.

ولو كانت أكبر حجما مما هي لازدادت قوتها الجاذبة ولأصبحت الحركة على سطحها أكثر مشقة ولازداد وزن كل منا أضعافا ولأصبح جسده عبئا ثقيلا لا يمكن حمله.

ولو أنها دارت حول نفسها بسرعة أقل كسرعة القمر مثلا لاستطال النهار إلى 14 يوما والليل إلى 14 ليلة ولتقلب الجو من حر مهلك بطول أسبوعين إلى صقيع قاتل بطول أسبوعين ولأصبحت الحياة مستحيلة.

وبالمثل لو أن الأرض اقتربت في فلكها من الشمس مثل حال الزهرة لأهلكتنا الحرارة.. و لو أنها ابتعدت في مدارها مثل زحل و المشتري لأهلكنا البرد.

وأكثر من هذا فنحن نعلم أنها تدور بزاوية ميل قدرها 33 درجة الأمر الذي تنشأ عنه المواسم وتنتج عنه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكن.

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا لامتصت الأكسجين، ولما وجدنا حاجتنا من هذا الغاز الثمين.

ولو كانت البحار أعمق لامتصت المياه الزائدة ثاني أكسيد الكربون ولما وجد النبات كفايته ليعيش ويتنفس.

ولو كان الغلاف الهوائي أقل كثافة لأحرقتنا النيازك والشهب المتساقطة بدلا من أن تستهلك هذه الشهب وتتفتت في أثناء اختراقها للغلاف الهوائي الكثيف كما يحدث حاليا.

ولو زادت نسبة الأكسجين عما هي عليه حاليا في الجو لازدادت القابلية للاحتراق ولتحولت الحرائق البسيطة إلى انفجارات هائلة.

ولو انخفضت لاستحال نشاطنا إلى خمول.

ولولا أن الثلج أقل كثافة من الماء لما طفا على السطح ولما حفظ أعماق البحار دافئة وصالحة لحياة الأسماك والأحياء البحرية.

ولولا مظلة الأوزون المنصوبة في الفضاء فوق الأرض والتي تمنع وصول الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض إلا بنسب ضئيلة.. لأهلكتنا هذه الأشعة القاتلة.

فإذا جئنا إلى تشريح الإنسان نفسه فسوف نرى المعجز والملغز من أمر هذا التوازن الدقيق المحسوب.. فكل عنصر له في الدم نسبة ومقدار.. الصوديوم.. البوتاسيوم.. الكالسيوم.. السكر.. الكوليسترول.. البولينا.

وأي اختلال في هذه النسب ولو بمقادير ضئيلة يكون معناه المرض.. فإذا تفاقم الاختلال فهو العجز والموت.

والجسم مسلح بوسائل آلية تعمل في تلقائية على حفظ هذا التوازن طوال الحياة.

بل إن قلوية الدم لها ضوابط لحفظها.

وحموضة البول لها ضوابط لحفظها.

ودرجة الحرارة المكيفة دائما عند 37 مئوية من ورائها عمليات فسيولوجية وكيميائية ثابتة متزنة عن هذا المستوى.

وكذلك ضغط الدم.

وتوتر العضلات.

ونبض القلب.

ونظام الامتصاص والإخراج.

ونظام الاحتراق الكيميائي في فرن الكبد.

ثم الاتزان العصبي بين عوامل التهدئة والإثارة.

ثم عملية التنظيم التي تقوم بها الهرمونات والإنزيمات بين التعجيل والإبطاء للعمليات الكيميائية والحيوية.

معجزة فنية من معجزات التوازن والاتساق والهارموني يعرفها كل طبيب وكل دارس للفسيولوجيا والتشريح والكيمياء العضوية.

(الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا)

(الفرقان 2)

ولن تنتهي الأمثلة في علم النبات والحيوان والطب والفلك، مجلدات ومجلدات. وكل صفحة سوف تؤيد وتؤكد هذا التوازن المحكم والانضباط العظيم في عالم الخلق والمخلوقات.

والقول بأن كل هذا الاتساق والنظام حدث صدفة واتفاقا هو السذاجة بعينها. كقولنا إن انفجارا في مطبعة أدى إلى أن تصطف الحروف على هيئة قاموس محكم.

والكيميائي المغرور الذي قال آتوني بالهواء والماء والطين وظروف نشأة الحياة الأولى وأنا أصنع لكم إنسانا. هذا الكيميائي قد قرر احتجاجه سلفا لكل العناصر والظروف وهو اعتراف بالعجز عن تقليد صنعة الخالق الذي خلق كل شيء وخلق ظروفه أيضا.

ولو أنا آتيناه بكل هذه العناصر وكل تلك الظروف. ولو أنه فرضا وجدلا استطاع أن يخلق انسانا.. فإنه لن يقول.. صنعته الصدفة.. بل إنه سوف يقول.. صنعته أنا.

والكلام عن القرد الذي يجلس على آلة كاتبة لمدى اللانهاية من الزمان ليدق لانهاية من الإمكانيات.

وكيف أنه لابد يوما ما أن يدق بالصدقة بيتا لشكسبير أو جملة مفيدة. هو كلام مردود عليه.

فسوف نسلم جدلا وفرضا بأن هذا حدث في الطبيعة وبأنه حدث صدفة واتفاقا وبعد ملايين الملايين من التبادل والتوافيق بين العناصر.. تكونت بالصدفة في مياه المستنقعات كمية من الحامض النووي DNA الذي يستطيع أن يكرر نفسه.

لكن.. كيف تطورت هذه الكمية من الحامض العضوي إلى الحياة التي نراها؟

سوف نعود فنقول بالصدفة أمكن تشكيل البروتوبلازم.

ثم بصدفة أخرى تشكلت الخلية.

ثم بصدفة ثالثة تشعبت إلى نوعين خلية نباتية وخلية حيوانية.

ثم نتسلق شجرة الحياة درجة درجة ومعنا هذا المفتاح السحري.

كلما أعيتنا الحيلة في فهم شيء قلنا إنه حدث صدفة.

هل هذا معقول.

بالصدفة تستدل الطيور والأسماك المهاجرة على أوطانها على بعد آلاف الأميال وعبر الصحاري والبحار.

بالصدفة يكسر الكتكوت البيضة عند أضعف نقطة فيها ليخرج.

بالصدفة تلتئم الجروح وتخيط شفراتها بنفسها بدون جراح.

بالصدفة يدرك عباد الشمس أن الشمس هي مصدر حياته فيتبعها.

بالصدفة تصنع أشجار الصحاري لنفسها بذورا مجنحة لتطير عبر الصحاري إلى حيث ظروف إنبات ورى وأمطار أحسن.

بالصدفة اكتشف النبات قنبلته الخضراء (الكلوروفيل) واستخدامها في توليد طاقة حياته.

بالصداقة صنعت البعوضة لبيضها أكياسا للطفو (بدون معونة أرشميدس).

والنحلة التي أقامت مجتمعا ونظاما ومارست العمارة وفنون الكيمياء المعقدة التي تحول بها الرحيق إلى عسل وشمع.

وحشرة وطبقت في مجتمعها نظاما صارما للطبقات.

والحشرات الملونة التي اكتشفت أصول وفن مكياج التنكر والتخفي.

هل كل هذا جاء صدفة.

وإذا سلمنا بصدفة واحدة في البداية. فكيف يقبل العقل سلسلة متلاقفة من المصادفات والخبطات العشوائية.

إنها السذاجة بعينها التي لا تحدث إلا في الأفلام الهزلية الرخيصة.

وقد وجد الفكر المادي نفسه في مأزق أمام هذه السذاجة فبدأ يحاول التخلص من كلمة صدفة ليفترض فرضا آخرا.. فقال إن كل هذه الحياة المذهلة بألوانها وتصانيفها بدأت من حالة ضرورة.. مثل الضرورة التي تدفعك إلى الطعام ساعة الجوع. ثم بتعقد الظروف والبيئات والحاجات فنشأت هذه الألوان.

وهو مجرد لعب بالألفاظ.

فمكان الصدفة وضعوا كلمة (تعقد الضرورة).

وهي في نظرهم تتعقد تلقائيا.. وتنمو من نغمة واحدة إلى سمفونية تلقائيا.

كيف؟

كيف ينمو الحدث الواحد إلى قصة محبوكة بدون عقل مؤلف؟

ومن الذي أقام الضرورة أصلا؟

وكيف تقوم الضرورة من لا ضرورة؟

إنها استمالة العقل الخبيث المكابر ليتجنب صوت الفطرة الذي يفرض نفسه فرضا ليقول إن هناك خالقا مدبرا هو اليد الهادية وعصا المايسترو التي تقود هذه المعزوفة الجميلة الرائعة.

هذا التوازن العظيم والاتساق المذهل والتوافق والتلاحم والانسجام الذي يتألف من ملايين الدقائق والتفاصيل يصرخ بأن هناك مبدعا لهذه البدائع وأنه إله قادر جامع لكل الكمالات وقريب من مخلوقاته قرب دمها من أجسادها.. معتني بها عناية الأب الحنون مستجيبا لحاجاتها سميعا لآهاتها بصيرا بحالاتها.. وانه الله الذي وصفته لنا الأديان بأسمائه الحسنى ولا سواه.. وليس القانون الأصم الذي تقول به العلوم المادية البكماء.. ولا إله أرسطو المنعزلين.. ولا إله أفلاطون القابع في عالم المثل.. ولا هو الوجود المادي بكليته كما تصور إسبينواز وأتباع الوجود.

وإنما هو الأحد.

الذي ليس كمثله شيء.

المتعالي على كل ما نعرف من حالات وصور وأشكال وزمان ومكان.

ظاهر بأفعاله خفي بذاته.. لا تراه الأبصار ويرى كل الأبصار.. بل إن كل الأبصار ترى به وبنوره وبما أودع فيها من قدرة.

والعقل العلمي لا يعترف بهذه الكلمات الصوفية ويريد أن يرى الله ليعترف به.. فإذا قلنا له إن الله ليس محدودا ليقع في مدى الأبصار.. وإنه اللانهاية وإنه الغيب.

يقول لنا العلم. إنه لهذا لا يعترف به. وإنه ليس من العلم الإيمان بالغيب وإن مجال العلم هو المحسوس، يبدأ من المحسوس وينتهي إلى المحسوس.

فنقول للعلم.. كذبت.

إن نصف العلم الآن أصبح غيبا.

العلم يلاحظ ويدون الملاحظات.. يلاحظ أن صعود الجبل أشق من النزول منه.. وإن رفع حجر على الظهر أصعب من رفع عصا.. وأن الطير إذا مات وقع على الأرض. وأن التفاحة تقع هي الأخرى من شجرتها على الأرض.. وأن القمر يدور معلقا في السماء.

وهي ملاحظات لا تبدو بينها علقة.

ولكن حينما يكتشف نيوتن الجاذبية ترتبط كل هذه الملاحظات لتصبح شواهد دالة على هذه الجاذبية.. وقوع التفاحة من شجرتها وصعوبة تسلق الجبل وصعوبة رفع الحجر.. وتعلق القمر بالسماء.

إنها نظرية فسرت لنا الواقع.

ومع ذلك فهذه الجاذبية غيب لا يعرف أحد كنهها.. لم ير أحد الأعمدة التي ترفع السماوات بما فيها من نجوم وكواكب.

ونيوتن نفسه وهو صاحب النظرية يقول في خطاب إلى صديقه بنتلى: إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس تؤثر على مادة أخرى وتجذبها مع أنه لا توجد بينهم أي علاقة.

فها هي نظرية علمية نتداولها ونؤمن بها ونعتبرها علما.. وهي غيب في غيب.

والإلكترون.

والموجة الكلاسيكية.

والذرة.

والنترون.

لم نر منها شيئا ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارها. ونقيم عليها علوما متخصصة ونبني لها المعامل والمختبرات.. وهي غيب في غيب.. بالنسبة لحواسنا.

والعلم لم يعرف ماهية أي شيء على الإطلاق.

ونحن لا نعرف إلا أسماء. لا نعرف إلا مسميات.. نحن لا نتبادل مصطلحات دون أن نعرف لها كنها.

والله حينما علم آدم الأسماء فقط ولم يعلمه المسميات.

(وعلم آدم الأسماء كلها)

(البقرة 31)

وهذه هي حدود العلم.

وغاية مطمع العلم أن يتعرف على العلاقات والمقادير. ولكنه لا يستطيع أن يرى جوهر أي شيء أو ماهيته أو كنهه. هو دائما يتعرف على الأشياء من ظواهرها ويتحسسها من خارجها.

ومع ذلك فهو يحتضن بنظرياته كل الماهيات ويفترض الفروض ويتصور مسائل هي بالنسبة لأدواته محض غيب وتخمين.

نحن في عصر العلم الغيبي.. والضرب في متاهات الفروض.

وليس للعلم الآن أن يحتج على الغيبيات بعد أن غرق إلى أذنيه في الغيبيات.

وأولى بنا أن نؤمن بعالم الغيب. خالقنا البر الكريم. الذي نرى آثاره في كل لمحة عين وكل نبضة قلب وكل سبحة تأمل.

هذا أمر أولى بنا من الغرق في الفروض.

المسخ الدجال

تروي لنا الأديان حكاية رجل يظهر في آخر الزمان ويأتي من الخوارق والمعجزات بما يفتن الناس من كافة أرجاء الأرض فيسيرون خلفه وقد اعتقدوا أنه إله.

وتصفه الروايات أنه أعور، وأنه يملك من القوة الخارقة ما يجعله يرى بهذه العين الواحدة ما يجري في أقصى الأرض كما يسمع بأذنه ما يتهامس به عبر البحار، كما يسقط الأمطار بمشيئته فينبت الزرع ويكشف عن الكنوز المخبوءة ويشفي المرضى ويحيي الموتى ويميت الأحياء ويكير بسرعة الريح.

ويفتتن به كل من يراه ويسجد له، على أنه الله. على حين يراه المؤمنون على حقيقته ولا تخدعهم معجزاته، ويشهدون رسم الكفر على وجهه.

ذلك هو المسيخ الدجال، إحدى علامات الساعة التي نقرأ عنها في كتب الدين.

والمسيخ الدجال قد ظهر بالفعل كما يقول الكاتب البولندي ليوبولدفايس.. وقد أسلم هذا الكاتب وعاش بمكة. وتسمى باسم محمد أسد.

وهذا المسيخ الشائه ذو العين الواحدة كما يقول ليوبولدفايس هو: التقدم العلمي والقوة المادية والترف المادي.. معبودات هذا الزمان.

مدينة العصر الذري، العوراء العرجاء، التي تتقدم في اتجاه واحد، وترى في اتجاه واحد هو الاتجاه المادي، على حين تفتقد العين الثانية (الروح) التي تبصر البعد الروحي للحياة.. فهي قوة بلا محبة، وعلم بلا دين، وتكنولوجيا بلا أخلاق.

وقد استطاع هذا المسخ فعلا عن طريق العلم أن يسمع ما يدور في أقصى الأرض (باللاسلكي) ويرى ما يجري في آخر الدنيا (بالتلفزيون)، وهو الآن يسقط المطر بوسائل صناعية، ويزرع الصحاري ويشفي المرضى وينقل قلوب الأموات إلى قلوب الأحياء، ويطير حول الأرض في صواريخ وينشر الموت والدمار بالقنابل الذرية، ويكشف عروق الذهب في باطن الجبال.

وقد افتتن الناس بهذا المسخ فعبدوه.

واما هذا الاستعراض الباهر للتقدم العلمي الغربي فقدنا نحن الشرقيين ثقتنا بأنفسنا ونظرنا باحتقار إلى تراثنا وديننا.

وفي حمى الشعور بالنقص والتخلف تصورنا أن دياناتنا ضرب من الخرافات المخجلة التي يجب أن نتخلص منها لنلحق بركب التقدم وندخل في رحاب المعبد الجديد. معبد العلم لنعبد ذلك الإله الجديد الذي اسمه القوة المادية.

وسجدنا مبهورين فاقدي الوعي وقد اختلطت علينا الوسيلة بالغاية.. فجعلنا من القوة المادية غايتنا. ونسينا أنها مجرد وسيلة وأداة.

القطار وسيلة.

والتلغراف وسيلة.

والكهرباء وسيلة.

والطاقة الذرية وسيلة.

ودور هذه الوسائل أن توضع في خدمة الإنسان لتحرره من الضرورات المادية فيفرغ إلى الفكر والتأمل وإثراء روحه بالمعرفة الحقة.

وبدلا من أن تكون هذه الوسائل في خدمتنا أصبحنا نحن في خدمتها نكد ونكدح ونتعارك ونتكالب لنمتلك عربة وراديو وتلفزيونا. فإذا امتلكنا هذه الأشياء ازددنا نهما ورغبة لنمتلك عربة أكبر من العربة ثم جهاز تسجيل ستريو فونيك ثم قاربا للنزهة ثم يختا ثم فيلا وحديقة وحمام سباحة.. ثم طائرة خاصة إن أمكن. ويطيش صوابنا شيئا فشيئا أمام سيل المنتجات الاستهلاكية التي تملأ الفاترينات.. ونتحول إلى جوع أكال يزداد جوعا كلما أمعن في الشراء. وحلقة مفرغة من الأطماع لا تنتهي لتبدأ، وهي أبدا تهدف إلى اقتناء سبب من أسباب القوة المادية أو الترف الحياتي مما تطرحه التكنولوجيا كل يوم في واجهة المحلات.

وكما يكدس المواطن العادي البضائع الاستهلاكية تكدس الدول الأسلحة والذخائر ثم تدمر بعضها بعضا في حروب طاحنة ثم تعود فتكدس أسلحة أخطر وقنابل أكبر.

العالم أصبح مسرحا مجنونا يهرول فيها المجانين في اتجاه واحد نحو القوة المادية. المسيخ الدجال الأعور ذو العين الواحدة. معبود هذا الزمان.

لا إله إلا المادة.

هذه هي الصلاة اليومية.

اختفى الإيمان بالله.

واختفى معه الإحساس بالأمن والسكينة والطمأنينة.

وأصبحت الصورة الفلسفية للعالم هي غابة يتصارع فيها المخلب والناب.

صراع طبقي.. وصراع عنصري.. وصراع عقائدي.. عالم فظيع من الخوف والقتل.

ولا أحد في السماء يرعى هذا العالم ويحفظه.

إلى هذه الحالة انتهت بنا عبادة الدجال الذي اسمه القوة المادية.

والنتيجة هي هذا الإنسان الكئيب المهموم الخائف القلق. وهذا الشاب الذي يدمن المخدرات في شوارع

لندن وباريس.. والانتحار والجنون الذي بلغ ذروته في بلاد الغنى والوفرة والرخاء أمثال السويد والنرويج وأمريكا. وإنسان المذعور الذي افتقد الأمان يحاول أن يستجلب لنفسه هذا الأمان بالوسائل الصناعية والتكنولوجية.. عن طريق عين سحرية يضعها على الباب تعمل بالأشعة الحمراء لاكتشاف اللصوص. وجرس الإنذار للخزينة. ورسم كهربائي للقلب كل شهر لاكتشاف الجلطة قبل أوانها. وأجهزة تكييف للحر والبرد وبوالص تأمين. وعشرات الأصناف من الفيتامينات والمسكنات والمنبهات وعشرات الأجهزة التي توفر الجهد والقوة العضلية.

وكل وسيلة مادية تحتاج بدورها إلى وسيلة مادية أخرى لتؤمنها. وفي النهاية لا أمان، بل مزيد من الخوف والقلق وسعار نحو مزيد من الوسائل المادية بلا جدوى.

وينسى الإنسان في هذا التيه الذي أضاع فيه عمره أنه أخطأ منذ البداية حينما تصور أن هذا العالم بلا إله وأنه قذف به إلى الدنيا بلا نواميس تحفظه وبلا رب يسأله.

وأخطأ مرة أخرى حينما عبد القوة المادية وجعل منها مصدرا لسعادته وهدفا لحياته وغاية لسعيه، وأقامها مكان الله. وتصور أنه يمكن أن تمنحه الأمن والسكينة والاطمئنان المفتقد، وأنها يمكن أن تحفظه من الموت والدمار، فإذا هي نفسها التي تسلبه سكينة النفس، ثم

إذا بها في النهاية تصبح أدوات الحروب التي تدمره وتبعثره أشلاء.

وأخطأ مرة ثالثة حينما تصور أن الكيمياء والطبيعة والكهرباء علوم وأن الدين خرافة.

ولو أنه فكر قليلا لأدرك أن الكيمياء والطبيعة والكهرباء هي في الواقع علوم جزئية تبحث في الجزيئات والعلاقات والمقادير والكميات.. وأن الدين علم كلي يبحث في الكليات.. بل هو منتهى العلم لأنه يبحث في البدايات الأولى للأشياء والنهايات المطلقة للأشياء، والغايات النهائية للوجود، والمعنى العالم للحياة والمغزى الكلي للألم.

الكيمياء والطبيعة والكهرباء هي العلوم الصغيرة.

والدين هو العلم الكبير الذي يشتمل على كل العلوم في باطنه.

ولا تعارض بين الدين والعلم، لأن الدين في ذاته منتهى العلم المشتمل بالضرورة على جميع العلوم.

والدين ضروري ومطلوب لأنه هو الذي يرسم للعلوم الصغيرة غاياتها وأهدافها ويضع لها وظائفها السليمة في إطار الحياة المثلى.

الدين هو الذي يقيم الضمير.

والضمير بدوره يختار للطاقة الذرية وظيفة بناءة.. ولا يلقى بها دمارا وموتا على الأبرياء.

وهو الذي يهب بنا أن نجعل من الكهرباء وسيلة للإضاءة لا وسيلة للهلاك.

والدين هو الذي يدلنا على أن كل العلوم وسائل هي الأخرى. والمادة ذاتها مخلوقة مثلنا وليست إلها يعبد.. وأنها لا تستطيع أن تمنح الإنسان الأمن والسكينة والسعادة.. وأنها من طبيعتها التحلل والفساد والتبدل والتغير شأنها شأن ذلك الكون الناقص وأنها لا تصلح سندا ولا تشكل قوة حقيقية.

والتقدم المادي مطلوب ولكنه وسيلة لا أكثر من وسائل الإنسان المتحضر ولا يصح أن يكون غايته.

والدين لا يرفض التقدم المادي ولكنه يضع في مكانه كوسيلة لا غاية.

والدين لا يرفض العلم بل يأمر به ويحض عليه ولكنه يضعه في مكانه كوسيلة للمعرفة ضمن الوسائل العديدة التي يملكها الإنسان كالفطرة والبصيرة والبداهة والإلهام والوحي.

ورفض العلم ورفض الأخذ بالوسائل المادية المتقدمة خطيئة مثل عبادة هذه الوسائل والخضوع لها سواء بسواء، وهو أحد أسباب التأخر في بلادنا.

وأنت تجد في الشرق أحد اثنين.. تجد من يرفض العلم اكتفاء بالدين والقرآن.. وتجد من يرفض الدين اكتفاء وعبادة للعلم المادي والوسائل المادية.

وكلا الاثنين سبب من أسباب النكبة الحضارية في المنطقة.. وكلاهما لم يفهم المعنى الحقيقي للدين ولا المعنى الحقيقي للعلم.

والدين، والإسلام خاصة، يعتبر العلم فريضة.. ويقول نبينا إن من مات مهاجرا في سبيل العلم فقد مات شهيدا.. وعن العلماء ورثة الأنبياء.. وإن علينا أن نطلب العلم ولو في الصين.. وأول كلمة نزلت في القرآن هي (اقرأ).

والإسلام دين عقل يخاطب أتباعه بالمنهج العقلي.

فالعلم والتقدم العلمي المادي له مكانه العظيم في ديننا.

ولكن هو دائما وسيلة لا غاية.. أداة لا صنم معبود..

وهذا هو وضع الشيء في وضعه الصحيح.

فالوسيلة المادية لا تمنح النفس أمنا ولا سكينة. وإنما هي سبيل إلى الترف والرفاهية وتيسير الحياة.. أما القلق والخراب الروحي فأنه يبقى ولا يزول بالرغم من وجود الفريجيدير والتلفزيون والريكوردر وجهاز التكييف وجميع الوسائل المادية. بل إن هذا القلق والخراب

الروحي يتفاقم بازدياد خضوع الإنسان لهذه الوسائل وجريه وراءها.

ولا تنزل السكينة على القلب ولا تعمر الروح بالطمأنينة والأمان إلا بوسيلة واحدة هي الاعتقاد بأن هنالك إلها خلق الكون وأن هذا الإله عادل كامل.. وأنه هيأ الكون نواميس تحفظه وقدر فيه كل شيء لحكمة وسبب وأننا راجعون إليه. وأن آلامنا وعذابنا لن تذهب عبثا. وأن الفرد حقيقة مطلقة وليس ترسا في آلة مصيره إلى التراب.

هذا اليقين الديني هو وحده الذي يرد للإنسان اعتباره وكرامته وليس الفريجيدير والتلفزيون والريكوردر ولا أية وسيلة مادية مهما عظمت. وبهذا اليقين تنزل السكينة على القلب ويصل الإنسان إلى حالة من العمار الروحي والتكامل الداخلي ويشعر بنفسه أقوى من الموت وأقوى من الظلم.

وبهذا اليقين يجابه أعظم الأخطار ويقهرها فهو بإيمانه في حصن أقوى من دروع الدبابات. حصن لا سبيل إلى اختراقه بأي قذيفة. لأنه حصن يعبر الموت ذاته.

وبهذا الإيمان يشعر الإنسان أنه استرد هويته وأنه أصبح هو هو حقا.. وأنه أدرك ذاته وتعرف على نفسه ومكانته من خلال إدراكه للإله الواحد الكامل.

والذي جرب هذا الشعور النادر يعلم أنه حالة من الاستنارة الداخلية وأنه ليس افتعالا.. وليس استجلابا مزيفا للأمان.. وإنما هو الحق عينه.. وأنه الصحو وليس الحلم.

وإنا نعلم أمر هذا اليقين من حال نقيضه..

من حال كثرة الناس الذين يعبدون الدجال..

مسيخ العصر الذري ذو المخ الإلكتروني.

هذه الكثرة التي تتصارع بالمخلب والناب وتأكل المخدرات وتتخبط على أبواب الجنون والانتحار وتنحدر في خطوات دموية إلى حرب عالمية ثالثة.

وسوف تقول لك فكرتك أي الاثنين على حق؟

هذه الكثرة التي يأكل بعضها بعضا وتتآكل حقدا وغلا وضراوة.. أم هذه القلة التي نزلت على قلوبها السكينة وأدركت أن هناك إلها..

والدين لا يرفض الحياة ولا يرفض العقل.

والإسلام بالذات ينطلق من مبدأ حب الحياة والحرص عليها ورعايتها، ويحض على احترام العقل وعلى طلب العلم ويقدم شريعة عصرية توحد بين الروح والجسد في التئام فريد.. لا الروح تطغى على الجسد ولا الجسد يطغى على الروح وإنما يتصرف الاثنان على أنهما واحد.. فهو لا يطلب منا أن نميت من الشهوة وإنما يطلب منا

أن ننظمها ونوجهها في إطار العلاقة المشروعة.. ومعيار التقوى عنده ليس الانقطاع للعبادة والعزلة والرهبانية.. وإنما معيارها العمل.. تسبيح الروح لابد أن يقترن بعمل اليدين وسعي القدمين من أجل خير المجتمع ونفعه.. والصلاة لا يكفي فيها خشوع النفس وإنما لابد أن يعبر الجسد عن الخشوع هو الآخر وفي ذات الوقت بالركوع والسجود..

والصلاة الإسلامية هي رمز لهذه الوحدة التي لا تتجزأ بين الروح والجسد.. الروح تخشع واللسان يسبح والجسد يركع.

والطواف حول الكعبة رمز آخر لدوران الأعمال حول القطب الواحد.. واستهداف الحركات والأفكار لهدف واحد هو الخالق الذي خلق الإنسان حيث لا موجود بحق إلا هو، وحيث كل شيء منه وإليه.. والطواف هو التعبير الجسماني والنفساني والروحاني لهذا التوحيد.

وبهذا يعيد الإسلام إلى الإنسان التئامه روحا وجسدا ويعيد إليه السكينة فينتهي ذلك الصراع الأزلي بين الشهوة والعقل، ويولد منهما شيء جديد هو الشهوة العاقلة البصيرة التي يتوحد فيها النقيضان.. كما تتوحد العاطفة مع الفكر والباطن مع الظاهر فلا نعود نرى ذلك المخادع يخالف قلبه عقله ويخالف عقله قوله ويخالف قوله فعله.. وإنما يقوم مقام ذلك الإنسان

المفكك الممزق.. إنسان جديد توحد روحا وجسدا.. وقولا وفعلا.. وباطنا وظاهرا..

وبوصول الإنسان إلى وحدته مع نفسه يصل إلى وحدته مع ربه.. وهي حالة القرب التي يدخل بها الإنسان دائرة الضوء ويضع قدمه على حافة الملكوت.

ويدور الإسلام حول هذه الفكرة المحورية.. فكرة التوحيد.. ويؤكد القرآن هذا المعنى في كل حرف وكل كلمة وكل آية ويكرره بمختلف الصور والقصص والأمثلة والحكم والعبر.

والإسلام يقدم للعصر المادي باب النجاة الوحيد والحل الوحيد والمخرج الوحيد.. فهو يقدم إليه كل تراثه الروحي دون أن يكلفه أن ينزل عن شيء من مكتسباته العلمية أو تفوقه المادي.. وكل ما يريده الإسلام هو أن يحقق الاقتران الناجح والتزاوج الناجح بين المادة والروح لتقوم مدينة جديدة هي مدينة القوة والرحمة، حيث لا تكون القوة المادية مسخا معبودا وإنما تكون أداة ووسيلة في يد القلب الرحيم..

وبذلك يتم تحطيم المسخ الدجال.. وتقوم دولة الإنسان الكامل.

وجوابا على الذين يسألون في حيرة: لماذا خلقنا الله؟ لماذا أوجدنا في هذه الدنيا؟ وما حكمة هذا العذاب الذي نعانيه؟

يجيب القرآن بمجموع آياته.. إن الله أنزل الإنسان إلى الدنيا بفضول مفطور فيه.. ليتعرف على مجهولاتها ثم يتعرف على نفسه. ومن خلال إدراكه لنفسه يدرك ربه.. ويدرك مقام هذا الرب الجليل فيعبده ويحبه وبذلك يصبح أهلا لمحبته وعطائه.. ولهذا خلقنا الله.. وهذا الهدف النهائي.. ليحبنا ويعطينا.. وهو يعذبنا ليوقظنا من غفلتنا فنصبح أهلا لمحبته وعطائه.

بالحب خلق

وللحب خلق.

تبارك وتعالى في سماواته، الذي خلقنا باسمه الرحمن الرحيم.

تم بعون الله